لَكَنُود

اسم الكتاب : لَكَنُود
اسم الكاتب: إسلام جمال

رقم الإيداع : ٢٠٢٠/١٣٨٣٨
الترقيم الدولي: 978-977-835-202-3

الطبعة الأولى : أكتوبر ٢٠٢٠
مراجعة لغوية: عمرو سواح
إخراج داخلي : إسلام جمال

صادر عن : مؤسسة زحمة كُتاب للثقافة والنشر
١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة

www.za7ma-kotab.com
دار زحمة كُتاب للنشر
za7ma-kotab@hotmail.com
٠٠٢٠١٢٠٥١٠٠٥٩٦

المشهرة قانونًا بسجل تجاريّ رقم / ٨٤٤٨٦
عضوية اتحاد ناشرين رقم ٨٢٢



لَكَنُود

يامن انطلقت شاكياً .. انتظر
قد نسيت بعض رزقك!

إسلام جمال

مؤلف كتاب فاتتني صلاة

هذا الكتاب كتبته لي وقرأته أنت
كنت أنا الشاكي الذي ذكرت

وحين قلت أنت .. لم أقصدك أنت
قصدت نفسي .. لربما اهتديت

لَكَنُود

إسلام جمال

لَكَنُود

(١)

مسني الرضا

كانت أيامي متشابهة إلى حدٍّ كبير وكأنها نُسخت نسخًا، كل صباح تخترق دقات ذلك الجرس مسامعي كإشارة إلى انتهاء رحلة نومي التي لم تبدُ أبدًا كافية لتتسارع معها دقات قلبي الذي لم يستيقظ بعد، فيضيق صدري، فها أنا على وشك أن أبدأ يومًا جديدًا، جديدًا شمسيًّا، روتينيًّا عاديًّا بالنسبة لي!!

عادة .. كنت أستقبل يومي بشيء من الضجر، لسبب أو دون سبب، لكن حتى أكون مُنصفًا، أحيانًا وفي مرات قليلة جدًّا كانت تجلب دقات ذلك الجرس شيئًا من السعادة معها، ذلك عندما تدق وأُدرك حينها أن اليوم عُطلة!

وقتها كنت أسكتها وفي داخلي إحساس غريب بالظفر وكأنني انتصرت في معركةٍ حامية، فأستأنف نومي مُحتضنًا لحظات البهجة الوحيدة في يومي، لكن للأسف لم أكن أسمح لها بهذا التعدي كثيرًا، فغالبًا ما كنت أنفي هاتفي إلى مكانٍ بعيدٍ في ليلة يوم العطلة؛ حتى لا تُزعجني دقاته في نهاره.

حالة من التبرم تسيطر على مزاجي حتى أصبحت جزءًا مني، بل أصبحت أنا، تراكمات الماضي وضبابية المستقبل أقامت داخلي حصنًا منيعًا ضد الرضا، إنها خيانة الأنا للأنا، أَلِفتُ كل شيء حتى فقد الشيء معناه، تملصت ذاتي فلم أعد أعرف ما يبهجها، تتسارع الأيام وكلما حاولت كبحها للسيطرة على ذاتي وفهمها .. جرفتني!

لم أكن أدري لماذا لا تستمر بهجة الأشياء؟
أول كل شيء يبدو جميلاً ثم يتلاشى ذلك الجمال
أو هكذا كنت أظن!
حتى جاء يوم لا أنساه
يوم مسني الرضا وصاحبتني فيه السعادة
عرفت فيه أن جمال الأشياء ثابت، وبهجتها ساكنة لم تتحرك
انتبهت أنني لم أكن أنظر لتلك الأشياء أصلاً كي أرى بهجتها!!

بدأ هذا اليوم ككل أسلافه
حينها شعرت بدقات ذلك الجرس تخترق مسامعي
حركت يدي في تثاقل كي أمسك هاتفي لأسكت الجرس
فإذا بها لا تستجيب لي!!
ظننت أني لم أُفِقْ بعد .. فحركتها ثانية .. لا تستجيب!!!

ولأنني مازلت في حالة شبه سُبات، أدركت أنني لا أرى الهاتف، فلعل يدي تتحرك للاتجاه الخطأ وأنا لا أدري ..

عزمت على الاستيقاظ بقوة

لكن عضلات جسدي هامدة لا تتحرك

فتحت عيني

لكني رأيت ظلامًا بدلاً من سقف غرفتي الذي ألفته

حركت يدي كي أتحسس عيني لكن يدي خاوية عاجزة

أصاب قلبي هلع لم أعهده قبل

هلع جعلني على يقين كامل أنني مستيقظ تمامًا!!

نعم .. أنا في حالة يقظة تامة، لكن يدي لا تستجيب لي، وأرى ظلامًا رغم أن عيني مفتوحة إلى أقصاها دون أن ترمش حتى.

كاد قلبي يتخلع من الخوف..

صرخت بملء في..

لكني لم أسمع صراخي..

أسمع فقط دقات ذلك الجرس التي لم تتوقف..

صرخت ثانية حتى كادت أعماقي تدمى..

لكن صرختي لم تتجاوز أعماقي!!

لا أدري..
أهذا هو الموت؟
أم أنا في طريقي إليه؟
أفقد حواسي واحدة تلو أخرى!

شعرت أنني أغرق في نهر من العرق وهو يتسلل من جبيني إلى عيني وأنا غير قادر أن أوقفه، أصابتني حالة من الرعب جعلتني أحرك الجزء الوحيد الذي يستجيب في جسدي حركات تشنجية عنيفة.. عُنقي.

تملكني التعب
استسلمت لما أنا فيه
أشعر باختناق مُثقل داخل صدري تعالت معه أصوات أنفاسي!

أنا أتنفس!
يبدو أنني حي
بل جثة حية. أطراف خاوية. رئة تتنفس!

هدأت أنفاسي شيئًا فشيئًا فجالت بعقلي خواطر لا طاقة لي بها، فشعرت بعبرات مختلطة بالعرق تنهمر لتتساقط على صدري..

ماذا لو لم يكن هذا هو الموت؟
هل سيلازمني هذا الظلام ما حييت؟!
هل سيصبح فراشي هو عالمي إلى أن أموت؟!
أنا لا أنطِق.. إن أردت شيئًا، كيف أطلبه؟
أطفالي.. ألن أرى أطفالي مرة أخرى؟!
أنا عاجز تمامًا.. سيُطعمني أحدهم ويحملني أحدهم!

أخذتني الخواطر حتى صورت لي أبسط التفاصيل في حياتي، بدت تلك التفاصيل البسيطة مزعجة جدًّا ومعقدة للغاية مقارنة بتلك الحالة من العجز التي تُسيطر عليَّ.

تمنيت لو أنني أستطيع الرؤية فقط فلربما هوَّن ذلك عليَّ؛ فرؤية أطفالي والعالم حولي ستضيف قدرًا كبيرًا من البهجة بدلاً من ذلك الظلام الحالِك، ولربما أستطيع القيام ببعض الأمور رغم شلل أطرافي.

ثم تصورتُني وأنا يحملني أحدهم ويُطعمني أحدهم
ولربما ضاق الكل بي ذرعًا
فتمنيت الحركة بدلاً من الرؤية
ثم آثرت النطق على الحركة
تاهت بي التصورات والخواطر حتى يئست تمامًا
فرددت لفظة (الله) بأنفاسي أستغيث بها..

وبينما أنا مستغرق باكٍ على حالي..
إذ بعيني تنفتح رويدًا رويدًا ويظهر سقف غرفتي ضبابيًّا!!
هاتفي في يدي يُصدر تلك الدقات..

حركت يدي فإذا بها تستجيب لي..
حركت قدمي فإذا بها تطاوعني..
ارتسمت على وجهي ابتسامة مُتعبة..
غمرني اطمئنان لم أشعر مثله قط..
لساني الذي عجز عن النطق وجدته يردد لا إراديا بصوت خافت
الحمــــد لله.. الحمــــد لله.. الحمــــد لله.

اعتدلت في جلستي ببطء مُنهك
جسدي يؤلمني وكأن شاحنة مرت فوقه
ومع ذلك.. تغمرني سعادة لم أصاحبها في حياتي قط

ما حدث لي لم يكن كابوسًا عابرًا، عرفت فيما بعد أنني أُصِبت بحالة واقعية تسمى الجاثوم (شلل النوم)، كنت واعيًا ولكن غير قادر على الرؤية أو الحركة أو الكلام..

لدقائق معدودة
فقدت بعض نعمي التي ألفتها
لأعلم أنني كنت أملك الدُّنيا وأنا لا أدري
انحصر كل رجائي خلال تلك الدقائق في استرداد عادية حياتي التي كنت مللتها

بعدها
لم تعد أيامي متشابهة
رأيت المعنى في كل شيء
الآن أستيقظ كل يوم وكأنني أُخلَقُ من جديد.

(٢)

لَكَنود

لسنوات وسنوات
وأنا أبحث عن رضا ذاتي وسلام داخلي
ظننته خطأً كامنًا فيما هو آتٍ
ناسيًا نِعمًا لا حصر لها تتجدد معي كل صباح

كنت أسعى في الأرض هنا وهناك مُعلقًا الرضا والسعادة على أمر ما، وما إن أحقق ذلك الأمر حتى أعلقها على آخر، فيأتيني الآخر، فأضعها على غيره، حتى اكتشفت أنني أنا من أدفع السعادة بعيدًا عني، كلما أتتني ألقيت بها.

وها أنا الآن تغمرني سعادة فاقت تلك التي كنت أبحث عنها، ورضا يملأ كياني لمجرد شعوري بأن إحدى نِعمي كادت أن تذهب ولكنها لم تفعل، وكأن الكريم يهديني كل يوم أسبابًا لا حصر لها لأحيا سعيدًا به راضياً عنه، فأغض أنا القلب عن نِعمه وأمُد العين إلى أخرى.

كان كلما سألني أحدهم عن حالي، أجيبه مستهترًا (لا جديد)!! الآن أوقفتني الكلمة فتساءلت: وما الجديد الذي أنتظره حتى أكون ممتنًّا لسيل النعم اللانهائي حولي؟

ما هذا الجديد الذي أبحث عنه ليجلب لي قدرًا من السعادة حال ذهب بصري؟ تالله لو عُرِض عليّ ملء الأرض ذهباً، ما قَبِلت.

وما ذلك الجديد القادر أن يعوضني حال فقدت سمعي؟ فوالله لو خُيرت بين مُلك الأرض وبين سمعي، لاخترت سمعي.

أي أمر هذا الذي أقبله ثمنًا لنُطقي فأكون أبكم؟
أليس جديدًا أن أمشي على قدمي وقد بُترت أقدام؟
أليس جديدًا أن يضخ قلبي كل يوم آلاف اللترات من الدم دون توقف!

إذن فيم الانتظار؟! لماذا كل هذه الضجة في انتظار أشياء لا تعدل نعمة واحدة تتجدد معنا كل صباح دون عناءأو مجهود..

أما آن لنا أن ننظر داخلنا وحولنا لنحتضن تلك السعادة ونعانق ذلك الرضا بدلاً من أن يضيع العمر بحثًا..

قال إيدي ريكينبيكر - **Eddie Rickenbacker** بعد التجربة التي مر بها هو ورفاقه عندما أمضوا واحدًا وعشرين يومًا على لوح خشبي تدفعه المياه حين ضلوا طريقهم في المحيط الأطلنطي: أن أكبر درس تعلمه هو أنه إذا توافر لدى المرء المياه العذبة التي يحتاجها والطعام الذي يريد تناوله فلا يحق له أن يشكو من أي شيء!!

المال والسعادة:

منذ نشأتنا ونحن نضع المال (أو ما يستطيع المال شراءه) والسعادة في قالب واحد، فظننا أننا سوف نُصبح سعداء راضين بمجرد تحقيق أمر مادي معين، أيًّا كان هو، كشراء منزل جديد أو سيارة جديدة أو أن يصل الرصيد البنكي إلى مليون.

قبل أن تتهمني بالزهد المزيف الذي لا يمس الواقع الذي نعيشه، فلتعلم أنني من المهتمين جدًّا بشئون المال، وقد منّ الله الكريم عليّ ووفقني أن أؤسس مجموعة من الأعمال في عدة دول، لكني بفضل من الله تعلمت في مرحلة ما في حياتي ألا أضع المال والسعادة في نفس القالب، وقد ساعدني هذا المبدأ أن أحقق الرضا والسعادة أولاً، فكان دافعًا لي لأحقق المزيد من الأمور المادية، وليس العكس.

أنا أعتبر المال من الأمور الضرورية جدًّا في الحياة، فهو زينة الله القدير في الأرض، ويجب على كل عبد لله أن يبتغي من فضل الله، فقد قال الله العليم الذي وضع لنا هذه الزينة في الأرض:

«قُلْ مَن حرَّم زِينةَ اللهِ التِي أخرجَ لِعبادِهِ والطيباتِ مِنَ الرِّزقِ»

لكن المال رزق والسعادة رزق آخر، وهذا من عدل الله الحكيم، فلنَسْتَثْنِ المال من معادلة السعادة، هذا سيوفر علينا خيبة الأمل عندما نبذل الكثير من أجل الحصول على هدف مادي ظنًّا منا أن السعادة تأتي معه فلا نجدها.

يقول بروفيسور دانيل جيلبرت مؤلف كتاب العثور على السعادة (Daniel Gilbert – Stumbling On Happiness): نحن البشر مخطئون جدًّا في توقع الأشياء التي تجلب لنا السعادة والرضا فنتخيل دائمًا أننا سنحصل على كم هائل من البهجة والسعادة مثلاً عندما نذهب لتلك الرحلة أو نشتري تلك السيارة، وكثيرًا ما نُصاب بخيبة الأمل، والمشكلة ليست في الرحلة أو السيارة بل في توقعنا الزائد عن الحد.

أيضًا تقول الإحصائيات أن ٤٠% ممن هم في قائمة فوربس **Forbes** لأغنى أغنياء العالم أقل سعادة من متوسط البشر، وفي استبيان تم مع أشخاص أجورهم متباينة بين القليل والمتوسط والعالي، وجدوا أنهم جميعاً - لا فرق بين من دخله قليل ومن دخله عالٍ- يظنون أنهم سوف يصبحون أكثر سعادة بزيادة أجورهم، فالجميع يبحث في الاتجاه الخطأ.

والعيب هنا ليس في المال أو الثروة، فهي أدوات مهمة جدًّا لتعمير الأرض ونشر الخير، إنما العيب فيما نتوقعه نحن البشر من المال والثروة، كالذي نفد وقود سيارته فأخذ الماء ليملأ به خزان الوقود!!

نعم، الماء مهم جدًّا، وبدونه تنتهي الحياة، ولكنه لن يحرك سيارة نفد وقودها، ولو استمرت المحاولات مئات السنين.

هذا ما يجعلنا نشعر باستمرار بعدم الرضا ونسيان شكر النِعم
فأيًّا كان ماتملكه معظمنا يتطلع للمزيد!
لا من أجل تعمير الأرض أو الارتقاء بحياة أناس آخرين
بل من أجل السعادة والرضا الذاتي
فنظل نتطلع ونبحث دون فائدة
لأننا في الاتجاه الخطأ
فكيف لنا أن نجد السعادة
إن كنا دائمًا نعلقها على إنجاز جديد
فندفعها عنا أبعد وأبعد..

وعاء السعادة:

في دراسة أُجريت عن الرضا والسعادة، وجد الباحثون أن أيًّا كان ما يحدث في حياة البشر سواء مروا بتجارب سلبية أو إيجابية، فإنه بعد فترة ما سواء طالت أو قصرت فإن وعاء السعادة لدى البشر يعود إلى مستوى معين ثابت، المستوى الذي اعتاد كل شخص أن يحيا به.

بمعنى.. لو أنك كنت تسعى للزواج أو شراء منزل جديد أو وظيفة جديدة، فإن هذه الأمور ستجلب لك شيئًا من البهجة لفترة محدودة فقط، فيزداد وعاء السعادة لديك، وما إن تنتهي تلك الفترة حتى يعود وعاء السعادة إلى حجمه التقليدي الذي اعتدت أن تحيا به سواء كان إيجابيًّا أو سلبيًّا.

وعلى العكس.. لو مررت بتجربة سلبية كفقد أحد أحبائك أو فقد وظيفتك أو بعض مالك، فسيسيطر عليك الشعور بالحزن لفترة محدودة، ومن ثم سيعود وعاء السعادة لديك لحجمه التقليدي الذي اعتدت أن تحيا به سواء كان سلبيًّا أو إيجابيًّا.

وفي دراسة تخصصية أجراها دكتور ديفيد ليكن وفريقه من جامعة مينيسوتا (Dr. David Lykkn – MinnostaUniversity) وجدوا أن ١٠% فقط من سعادة البشر تنبع من الأشياء المادية كالثروة والمستوى الاجتماعي والوظيفي، بينما ٩٠% من سعادة البشر تعتمد على عادات التفكير ونظرتهم للأمور.

أثناء تلك الدراسة طلب فريق جامعة مينيسوتا من زوجين كتابة انطباعهما عن عامهما السابق كلٌّ على حدة، فكتبت الزوجة ما يلي:

في السنة الماضية، أجريت لزوجي عملية إزالة المرارة، ولازم الفراش عدة شهور، وبلغ الستين من عمره؛ فترك وظيفته المهمة في دار النشر التي ظل يعمل بها ثلاثين عامًا، وتُوفي والده في تلك السنة، ورسب ابننا في بكالوريوس كلية الطب لتعطله عن الدراسة عدة شهور بسبب إصابته في حادث سيارة.

وفي نهاية الورقة كتبت:

قد كانت سنة سيئة للغاية!!

على الجانب الآخر كتب الزوج ما يلي:

في السنة الماضية..
شُفيتُ من آلام المرارة التي عذّبتني سنوات طويلة، وبلغت الستين وأنا في تمام الصحة، وسأتفرغ للكتابة بعد أن تم التعاقد معي على نشر أكثر من كتاب مهم.

وعاش والدي حتى بلغ الخامسة والتسعين من غير أن يسبب لأحد أي متاعب، وتوفي في هدوء من غير أن يتألم، ونجا ابننا من الموت في حادث السيارة، وشُفي بغير أية عاهات أو مضاعفات.

وختم الزوج عبارته قائلاً:
يا لها من سنة أكرمنا الله بها، وقد انتهت بكل خير.

نفس الأحداث..
لكن كل شخص رآها حسب وعاء الرضا الذي يمتلكه، والنتيجة أن أحدهم عاش عامه التالي سعيدًا والآخر عاشه كنودًا.

لكنود:

ضرب الله تعالى لنا مثلًا عظيمًا في سورة العاديات، مثل يجعلنا نستحي، فيه أقسم الله عز وجل بالعاديات وهي الخيول..

لكن لم يُقسم الله العزيز بالخيول وهي واقفة، لكن نعتها بصفة الضبح. الضبح هو صوت أنفاس الخيول عندما يحترق صدرها من شدة الركض، فقال تعالى: «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا»

لماذا يُقسم الله تعالى بالخيول وهي تركض بأقصى شدة لها وكأن صدرها يشتعل نارًا؟ سيجيب الله الحكيم عن هذا القسم لاحقًا في نفس السورة.

أضاف الله القدير لصفة الضبح صفة أخرى فقال «فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا» وهي النار أو الشرارة التي تلمع نتيجة لاحتكاك أقدام الخيول (حوافرها) مع الأرض وهي تركض بسرعة شديدة..

نار تحرق صدور الخيول ونار تحرق أقدامها!!

«فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا» هنا يخبرنا الله تعالى أن الخيول لا تركض هذا الركض الشديد من أجل التسلية أو التدريب بل تركض داخل حرب (فالمغيرات) أثناء النهار (صُبحًا). فهي تعلم أنها داخل معركة وترى الأسهم والرماح والسيوف وتعلم أنها في خطر، ومع ذلك لم تتراجع ساخطة على قائدها..

«فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا» أي أثارت الغبار في مكان المعركة من شدة الركض فأصبح الهواء الذي تتنفسه الخيول مختلطًا بالغبار (النقع). صدرها يشتعل نارًا ومع ذلك لا تستنشق هواءً نقيًّا بل تستنشق هواءً مختلطًا بالغبار.

«فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا» أي أنها تقف في مركز المعركة، أخطر مقام فيه احتمالية هلاكها كبيرة.

كل هذا كان قسمًا من الله عز وجل:

«وَالعَادِيَاتِ ضَبْحًا. فالمُورِيَاتِ قَدْحًا. فَالمُغِيراتِ صُبْحًا. فَأَثَرْنَ بِه نَقْعًا. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا»

ثم جاء جواب القسم عجيبًا:

«إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ» !!!

القرآن الكريم يحدثنا عن الخيول ويصف أحوالها ثم ينتقل للحديث فجأة عن حال الإنسان مع ربه ويصفه بالـ (كنود) أي الساخط على نِعم الله تعالى غير مُقدِر لها.

لِمَ هذا الانتقال العجيب؟!

يخبرنا الله عز وجل أن الخيول تضحي كل هذه التضحية من أجل قائدها الذي -فقط- يُطعمها ويسقيها ويرعاها، فتحترق صدورها، وتشتعل حوافرها، تُساق إلى المعركة راضية، تستنشق غبارًا رغم أن صدورها تحترق، تقتحم مركز المعركة وفيه هلاكها.

قائدها هذا لم يخلق لها السمع ولا البصر ولا حافرًا من حوافرها، هو فقط أطعمها وسقاها ورعاها، ومع ذلك فهي تُظهر امتنانها له بالإقدام على هلاكها دون خوف.

فماذا عن الذي خلق كل شيء وأسبغ علينا النعم ظاهرة وباطنة!!

ألا نستحي من العاديات ونُظهر شيئًا من الامتنان (لا أقول تضحية)، فيرى الناس في وجوهنا تلك البسمة الراضية عن الله الغني؟

ألا نستحي من العاديات فنُذكِّر أنفُسنا بنِعم الله علينا كلما أهمتنا أو أرهقتنا هذه الدنيا بدلاً من أن نشتكي هنا وهناك؟

ألا نستحي من العاديات فنرفع راية الجهاد أمام التذمر مُدافعين عن نِعم الله مقاومين همزات الشياطين فنهزمهم بلسان راضٍ وشفتين ضاحكتين؟

ألا نستحي من العاديات فنحيي عبادة قد نسيناها نتعبد لله بها؟

عبادة السعادة

(٣)

عبادة السعادة

تلك البسمة الهادئة على وجوه الراضين رغم ما بهم من آلام إنما هي عبادة، بل عبادة عظيمة، يحتاج أداؤها جهدًا أكبر من الصلاة والزكاة والصيام، عبادة تشبه تسبيح الملائكة حيث لا انقطاع لها، عبادة تلازمك أينما كنت إن اخترتها لك منهجًا.

وهذا الذي لا يفارق العبوس وجهه ولا تفارق الشكوى لسانه إنما يرسل رسالة سخط – بقصد أو دون قصد – على نِعم الله العليّ القدير، فيعصيه بها دون أن يدري.

ألم يشعر هذا الشاكي بنعمة واحدة من سيل النعم داخله أو حوله حتى يشكر الله عليها في أدب ويكف عن الشكوى، ما ظنه يتفنن في سرد شكواه - بأسلوب يعجز الأُدباء عن محاكاته - كلما سأله أحدهم عن حاله، أيشكو الخالق لخلقه؟!

نمرُّ بمئات المواقف التي تستحق منا الشكر والتقدير، تستحق أن نسعد بها، ثم ننساها بمجرد أن نُصادف أمرًا واحدًا يسوءنا فيُمسي هو حديثنا إلى أن تمل الشكوى منا.

يدفعنا إبليس إلى الشكوى دفعًا واهمًا إيانا أننا نشتكي ظروفًا - لا أكثر – فنملأ الدنيا سخطاً ناسين أن الظروف إنما هي جند من جنود الله ساقها إلينا حتى نشتكي إليه لا منه.

ألم ندرِ بعد أن أول قرار انتقامي من إبليس بعد طرده من الجنة هو إشغالنا حتى لا نكون شاكرين، ألم يقُلها في تحدٍّ فاجر:

«ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أيدِيهِم ومِن خَلفِهم وعَنْ أيمانِهم وعن شمائِلِهم ولا تَجِدُ أكثرَهم شاكرينَ»

كل يوم وليلة يصرفنا إبليس عن كنز النِعم بزحام النِعم، فيلُهينا هنا وهناك ويدفعنا إلى سراب بعد سراب، إن امتلكنا عائلة نشتكي المسئولية، وإن امتلكنا بيتاً نشتكي العمل، وإن امتلكنا عملاً نشتكي المال، وإن امتلكنا مالاً نشتكي الحسد، يريدنا دائمًا أن نرتبط بشيء ما، لا فراغ للنفس تتجرد فيه من كل تلك الأشياء.

لذلك مجاهدة النفس والهوى أمام «ولا تجد أكثرهم شاكرين» هي عبادة لله الغنيّ، عبادة تُفسد خُطة إبليس الأولى التي ابتدأها بـ«لأقعُدنَّ لهم صراطَكَ المستقيمَ» وكأنه أعد خُطة مُحكمة شاملة فيها كل صنوف الإثم غرضها واحد وهو ألا نكون شاكرين.

الرضا والطموح:

إن وجد قلباً سعيدًا راضياً بما آتاه الله، يهمس إليه حقدًا أنه سيعيش نكرة بلا طموح ولا إنجازات، مُستسلمًا لما فُرض عليه من واقع.

هكذا يخطط إبليس ليُعكر صفو ذلك السلام الداخلي النابع من الرضا فيبدأ بفرضيات منطقية تلمس الواقع، وإن لم يجد ردًّا رادعًا على تلك الفرضيات الكاذبة فإنه يضخم مقترحاته حتى ينسينا الفكرة الأصلية تمامًا ليتركنا مُنشغلين باللهث عن الحمد وباليأس عن الشكر.

لكن..
ما المانع أن أتطلع لما أريد بينما أستمتع وأرضى بما لدي؟!
ما التناقض في ذلك؟!!

من قال إنه يجب عليّ أن أسخط على واقعي حتى أتغير للأفضل، فقط إبليس هو من يروج لهذه الفكرة، واقعي سيلازمني شئت أم أبيت، حال قررت التغيير أم آثرت عدمه.

التناقض بين الطموح والرضا فكرة يزرعها إبليس كل يوم في عقولنا، والحقيقة أن الرضا هو القوة الدافعة للطموح، فالرضا طريق السعادة، والسعادة باعثة للتفاؤل، والتفاؤل هو الدافع للنجاح.

قرأت العديد من سيَر الناجحين فلم أجد واحدًا ليس التفاؤل شيمة له، فهذا جيف بيزوز **Jeff Bezos** أغنى رجل في العالم لعام ٢٠٢٠ -والعالم كله مِلك لله الغنيّ- بدأ شركة أمازون **Amzon** في جراج بيته مستخدماً باباً قديماً ليجعل منه سطح مكتب يعمل عليه، تلك الشركة العملاقة التي تبيع كل شيء الآن، بدأت ببيع الكُتب من خلال الإنترنت عام ١٩٩٤، لن تجد سبباً واحدًا يجعله يستمر في ذلك الوقت الذي كان استخدام الإنترنت فيه محدودًا جدًّا سوى أنه كان متفائلاً!

ومعظم الشركات الرائدة في الكوكب الآن، كانت بدايتها متواضعة جدًّا، ولولا تفاؤل مؤسسيها لكانت تلك الشركات العملاقة مجرد أوراق مخطوطة، فأين التناقض بين الرضا (الباعث للتفاؤل) وبين الطموح؟

لماذا يجب علينا أن نشعر بالإحباط ومن ثم السخط كلما أردنا أن نُحقق إنجازًا جديدًا؟ لماذا يجب علينا أن نتنمر على كل ما لدينا من أشياء جميلة حتى نبدو ناجحين؟!

النظر إلى كنز النِعم الذي أهداه لنا الكريم يوم أوجدنا على هذه الأرض، والرضا به، يُضفي داخلنا شعورًا بالقوة والسكينة والتفاؤل، يجعل كل التحديات تبدو سهلة وكل العقبات يسيرة فنضرب في الأرض هنا وهناك مُحققين أهدافنا شاكرين حامدين.

الإيجابية والتفاؤل ليست كلمات تحفيزية فقط، بل هي تفاعلات كيميائية تحدث داخل أجسادنا فتؤدي إلى إفراز هرمونات معينة يمكنها تغيير شعورنا وحالتنا المزاجية.

هناك نظام داخل المخ يسمى نظام التفعيل الشبكي **RAS** **(Reticular Activating System)** حيث تقوم بعض الخلايا بفلترة المعلومات التي يستقبلها المخ من حيث الأهمية..

فمثلاً إن كنت تبحث عن سيارة معينة لتشتريها، في فترة البحث تلك ستجد عينيك دائمًا تقع على نوع هذه السيارة في الطريق، تتجاوز عيناك كل أنواع السيارات وترى دائمًا هذه السيارة ظاهرة جلية، هذا نظام ال**RAS** يعمل داخل دماغك، فهو يفلتر المعلومات بحيث يُقدم للمخ المعلومات صاحبة التركيز الأعلى.

فإن كنت دائماً تركز على رؤية الجانب السلبي من الأشياء، مع مرور الوقت سيصبح هذا أسلوب حياة حتى لو امتلكت الدنيا كلها، كل شيء جميل تحصل عليه سيرى دماغك الجانب السلبي منه فقط.

فأولئك الذين يتسمون بالسخط والغضب وعدم الرضا يكون التشاؤم مُصاحبًا لهم، وغالبًا ما تتراجع مستويات حياتهم ولا يحققون أي إنجازات ملحوظة سواء على المستوى الشخصي أو المهني أو الاجتماعي..

فهؤلاء كما قال عنهم جاك ما **Jack Ma** ذوو عقلية فقيرة نابعة من التشاؤم:

- أعطهم شيئًا مجانيًّا. وسيقولون هذا فخ !
- أعطهم فرصة مشروع برأس مال قليل.
يقولون إنه ليس مشروعًا حقيقيًّا ولن يدر عائدًا كبيرًا.

- وإذا قلت لهم جربوا شيئًا جديدًا فسيقولون ليس لديهم خبرة.
- قل لهم جربوا تجارة تقليدية فسيقولون المنافسة صعبة.

في الواقع هم يفكرون أكثر من تفكير بروفسور جامعي ولا ينتجون شيئًا.

يوسف السعادة:

اتخذ يوسف -عليه السلام- السعادة عبادة والرضا منهجًا يحيا به حتى تكسرت أمامه كل العقبات والتحديات وخجل منه الابتلاء فصار عزيز مصر.

ذلك الابن الفائق الجمال، جميل الصورة وجميل الروح، الذي خطف قلوب والديه حبًّا وقربًا ودلالًا..

فجأة يُخرَج من كل هذا الحنان ويُلقى في بئر وحيدًا في صحراء خالية لا يرى أحدًا ولا يسمع صوتًا، بعد ذلك يؤخذ ليباع كعبد في بيت العزيز ويتعرض إلى فتنة النساء وتدعوه للرذيلة امرأة العزيز التي إن عصى أمرها كادت له.

واحدة فقط من هذه الابتلاءات كفيلة أن تجعل صاحبها ينهار ويستسلم لبطولة دور الضحية، فما ذنبه أن يكيد له إخوته حتى تنقلب حياته، وها هو تدعوه سيدته للرذيلة ومئات الأعذار يمليها عليه إبليس.

يضرب يوسف -عليه السلام- بسيف الرضا كل هذا الاضطراب الذي مر به، ويقولها عالية جلية «مَعاذ الله إنه ربي أحسَن مَثواي»، مُلقى في بئر وبيع كعبد وانقلبت حياته كلها في عمر الدلال ومع ذلك يقول (أحسن مثواي)!!

وبعد ذلك يُلقى في السجن ظُلمًا ولا يتسخط، بل يعمل على رسالته التي بُعث من أجلها ويكون داعية إلى الله داخل السجن:

«ياصاحبي السجن أأربابٌ مُتفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار»

و في نهاية القصة عندما أصبح عزيز مصر يقول عن الله الحكيم:

«وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن»

هو يرى أن الخروج من السجن إحسان وتكرم ليس كشفًا لابتلاء. لأنه لم يرَ السجن أصلاً ابتلاء.

ونحن إن كُسر قلمنا أو أصيب أصبعنا قلنا في أنفسنا لماذا يا رب!!

اتخذ يوسف -عليه السلام- السعادة عبادة والرضا منهجًا، فأصبح ينظر إلى الإحسان فقط (أحسن مثواي) و(قد أحسن بي) رغم كل ما مر به من مِحن، فنال ثمرة هذه العبادة العظيمة.. عبادة السعادة.

عبادة السعادة.. أن نكون على يقين بأنه أيًّا كانت الظروف حولنا فإننا نملك ما يستحق الشكر والتقدير، بل نملك الكثير منه، بل نملك ما لا يمكن حصره.

عبادة السعادة.. هي أن نغير منظورنا لسيل النعم التي ألفناها، فنراها جديدة متجددة مع كل صباح نستقبله. أن نكون ممتنين لما نملك. فالشكر والامتنان لن يجعلنا فقراء.

عبادة السعادة.. هي أن نلزم أنفسنا بالصمت كلما حاول إبليس إثارتنا كي نبدأ مسلسل شكوى لا جدوى منه.

عبادة السعادة.. هي أن نتعلم التوكل على الله القوي فنغير ما يسوءنا بدلاً من إضاعة الوقت والطاقة شاكين متذمرين.

عبادة السعادة.. هي أن نعمل على أهدافنا في هدوء وفقاً لخطة واضحة بينما نستمتع بكل ما لدينا الآن غير ساخطين ولا متبرمين.

عبادة السعادة.. هي أن نعلم أنه ليس بمقدورنا تغيير ما مضى، ولكننا قادرون على تغيير نظرتنا إليه.

عبادة السعادة.. عبادة يحبها الله ورسوله

هو الذي رأى كسرة خبز مُلقاة في بيته.. فمشى إليها.. ثم أخذها فمسحها.. ثم قال:

«يا عائشة. أحسني جوار نِعم الله. فإنها قل ما تزول عن أهل بيت. فكادت أن تعود إليهم»

عليه أفضل الصلاة والسلام

أما آن أن نُحسن جوار النِعم!

(٤)

إيلاف البصر

أما قبل..

تفكرت..

كيف سيكون حالي إن أصبحت فوجدتني بلا بصر..

كيف هي تلك الخطوات البسيطة التي كانت تأخذني من فراشي حيث أُريد دون عناء أو مجهود..

كيف ألوان الثياب التي أختار منها أجملها وأقومها..

كيف أنواع الطعام..

كيف هي تلك المشية الهادئة الرزينة..

كيف عملي!!

كيف أطفالي وهم يكبرون..

كيف هو الفرق بين الليل والنهار.

يا أمي ما شكل السماء.. وما الضياء وما القمر
بجمالها تتحدثون.. ولاأرى منها أثر

هل هذه الدنيا ظلامٌ في ظلامٍ مستمر
يا أمي مُدي لي يديك عسى يزايلني الضجر

أمشي أخاف تعثرًا.. وسط النهار أو السحر
لا أهتدي في السير.. إن طال الطريق وإن قصُـــر

أمشي أُحاذر أن يـُصادفني إذا أخطو خطر
والأرض عندي يستوي منها البسائط والـحـــُفر

عـــُكازتي هي ناظري.. هل في جمادٍ من نظر؟
يجري الصغار.. ويلعبون ويرتعون ولا ضرر

وأنا ضريرٌ قاعدٌ في عـُقر داري مستقر
الله يلطف بي ويصرِفُ ما أقاسي من كدر

نسأل الله العزيز القدير أن يربط على قلب كل ضرير و يُنزل عليه السكينة
ويشرح صدره ويرزقه البصيرة

أردت أنُ أبصر

عندما وصلنا إلى مبنى المدرسة في أول يوم لي، أرشدتني شقيقتي إلى صفي الدراسي لكنني قلت لها أنها ليست مضطرة للمضي معي أكثر من ذلك لأني أستطيع الاعتناء بنفسي..

دخلت الصف بثقة، ثم توجهت نحو المعلمة التي كانت جالسة عند مكتبها قريبًا من الباب. لم ترفع نظرها إليّ، بل واصلت القيام بكتابة شيء كانت منشغلة به..

كانت تطلب من الأطفال قبل الدخول أن يقرءوا فقرة قد كتبتها على السبورة حتى تتأكد من قدرتهم على القراءة..

سألتني بعد برهة: أخبريني ماذا ترين على السبورة هناك؟
قلت لها: أنا لا أستطيع أن أرى شيئًا!!

قالت بلهجة آمرة: إذاً.. ماذا تفعلين هنا؟ هذه ليست مدرسة للمكفوفين، ونحن لا نقبل الأطفال الذين لا يستطيعون الرؤية.

قلت في نفسي وقد أصابني الذعر فجأة: لن أُقبل في المدرسة الكبيرة؟! هذا مستحيل.. شعرت بأنفاسي تتسارع والضيق يخيم على صدري.

بقيت المعلّمة جالسة وهي تعاينني عن قرب، وحاولت أن أفكر فيما يجب عليّ فعله، لم أكن كفيفة، أنا أستطيع أن أرى، صحيح أن بصري ليس بقوة بصر بقية الأطفال، لكن أمي تسمح لي بتقديم يد العون في كل شأن من شئون المنزل تماماً كالآخرين.

لم أستطع العودة للمنزل، فقد قال لي أبي من قبل نحن في منزلنا نُنهي دائماً ما نبدأه. لذلك كان عليّ إفهام المُعلمة أنه بإمكاني الرؤية.

قلت لها: أستطيع أن أرى.. لكن ليس من مسافة بعيدة!
لكنها لم تلتفت إليّ..

أُصبت باليأس.. إذ كيف يمكنني إقناعها بأنني لست عمياء، كل الأطفال حولي دخلوا القاعة فيما كنت أنا الوحيدة الواقفة عند الباب، أوشكت على البكاء لكني تماسكت حتى خطرت لي فكرة لإقناعها..

وقفت أمام السبورة واقتربت جدًّا من اللوح وقمت بتثبيت عيني على الكلمة التي أريد أن أقرأها بحيث تكون حروفها قريبة جدًّا من عيني، كنت أسير جيئة وذهاباً قبالة السبورة السوداء لأتمكن من قراءة حروف كل كلمة..

بدأ بعض الصبيان بالضحك بصوت مكبوت، أنهيت قراءة كل الكلمات ثم وجدتني أنفجر بالبكاء وأنا أقول للمعلمة:

أستطيع أن أرى.. أستطيع أن أرى!!

رددتها كثيرًا والدموع تغمرني مما أصاب المعلمة الصلبة بشيء من الشفقة، فاقتنعت أخيراً وسمحت لي بالبقاء.

عندما خرجنا للاستراحة، بحثت عن شقيقتي لكني لم أتمكن من العثور عليها ولا على أي شخص أعرفه، تجولت في أرجاء ملعب المدرسة ودقّقت في وجوه الأطفال بقربي لأرى إن كان بمقدوري التعرف على أيّ منهم، كان الأمر شاقًّا ومُحرجًا حيث كان عليّ الاقتراب مباشرة من عدّة أشخاص اعتقدت أنهم بعض أصدقائي لكني وجدت نفسي مُخطئة كل مرة..

كانت نظرتهم غريبة لي، فالبعض ينظر لي بشفقة وآخرون يضحكون ساخرين، لم أدرِ لماذا !! كنت سعيدة في صباح ذلك اليوم قبل الذهاب إلى المدرسة لأن أمي خاطت لي ثيابًا خضراء جميلة وكنت أظن أن مظهري حسن كالأميرات، لكني لم أتوقع أن إعاقة عيني ستفسد ذلك كله..

تعرضت لمضايقات في ظهيرة ذلك اليوم من قِبل بعض الصبية المُشاغبين مما دفعني لأختار طريقاً متعرجة للعودة إلى منزلي للتخلص منهم.

صعدت سلم المنزل بسرعة وتوجهت إلى غرفة نوم أمي، أخذت المرآة اليدوية من خزانتها وصعدت السلّم مسرعة نحو غرفتي، ثم توجهت نحو النافذة الغربية حيث أشعة الشمس وألصقت المرآة بوجهي، ولأول مرة في حياتي تمكنت من رؤية شكلي بالضبط!!

كانت إحدى عينَيّ أصغر بكثير من العين الأخرى لأنها كانت غائرة في رأسي وكأنها كتلة زرقاء باهتة ميتة وأفتح بكثير من العين الثانية، حدّقت في وجهي ورأيت بعد برهة أن عيني السليمة كذلك فيها بقع بيضاء في الجزء الأزرق منها، ولاحظت أيضاً أن جفن عيني الضعيفة مغمض جزئيًّا بشكل دائم..

حاولت فتحها لتكون مثل أختها
لكني لم أستطع أن أتحكم فيها طبيعيًّا مثل الآخرين
وعندما ألفيتُ نفسي عاجزة عن ذلك
قمت بفتح جفني بأصبعي
سبب هذا لي أذى كبيرًا للغاية، حيث اضطررت إلى إفلات الجفن

أغمضت كلتا العينين وحاولت أن أرى نفسي من خلال فتحة ضيقة جدًّا لكني لم أنجح أبدًا، اعتقدت أني سأبدو كالآخرين وعيناي مغمضتان، لو تسنى للناس رؤيتي وأنا نائمة لكفوا عن نظرات الشفقة والسخرية، ألقيت نظرة طويلة أخرى على نفسي، وبعد أن وعيت تمامًا كيفية ظهوري في أعين الناس.. أجهشت بالبكاء.

***

من الأمور التي كنت قد سمعت عنها كثيرًا في المدرسة ما يسميه الأطفال الأكبر سنًّا امتحانات، كانوا يتحدثون عن الامتحانات بطريقة يشوبها الخوف والفخر، وتملكني فضول شديد إزاء معرفة ما تبدو عليه.

لذلك عندما ذكرت معلمتنا في الصف الثاني ذات يوم أننا سنُجري امتحانات في اللغة عصر اليوم التالي، انتظرت هذه التجربة الجديدة بفراغ صبري المُتلهف المعهود..

أخيرًا جاء يوم الامتحان، وأُجري في الحصة الأخيرة قبل الانصراف، وكنا نحن الأطفال جميعًا متأهبين وبأيدينا أقلام رصاص مبرية بعناية وأمامنا على المناضد الدراسية صفحات من الورق الخشن الرمادي اللون.

قالت المعلمة وهي واقفة أمامنا بجانب السبورة: تذكروا، يجب عليكم ألا تساعدوا أحدًا وألا تتلقوا مساعدة من أحد وأنتم تُجرون هذا الامتحان، وإذا فعلتم تكونون قد غششتم وسيكون عليّ أن ألقي بأوراقكم في سلة المهملات، وأن أمنحكم صفراً، وسيعني هذا أنكم لن تجتازوا هذه المرحلة الدراسية .

رغم أني نظرت إلى السبورة مباشرة حيث كانت تكتب الأسئلة وأجهدت عيني غاية الجهد كي أرى إلى درجة غدا معها كل ما حولي ضبابيًّا، إلا أنني لم أُبصر ولو كلمة واحدة من أسئلة الامتحان!!

سمعت صرير أقلام رصاص الأطفال حولي
فقد كانوا مُنكبين على ورقة الإجابات
ثم وضعت المعلمة الطبشورة والتفتت نحونا!
حنيت رأسي كالباقين وتظاهرت بالكتابة أيضًا
وعندما رفعت رأسي
كانت المعلمة قد انصرفت لتقف خارج قاعة الامتحان.

حسدت صديقتي التي كانت تجلس أمامي لسماعي قلمها وهو ينتقل بسرعة فوق ورقتها، اختزلت كل أمنيات الطفولة في أمنية واحدة وهي أن أرى أسئلة الامتحان، فكرت في التوجه نحو السبورة لأتمكن من رؤية الأسئلة، لكن إذا كان الالتفات غشًّا فلا بد وأن يكون المشي نحو السبورة أمرًا أسوأ..

كنت في وضع بائس حقًّا، عدم النجاح في نهاية الفصل، في نظري، كان أسوأ أنواع الخزي في المدرسة..

فقد أخفق اثنان من الصبية الذين في صفي في الاختبار عامهم الماضي والآن هم يعيدون المرحلة معنا، وعرفت أنني لن أنجو من الإذلال الذي لحق بهم.

بكيت بصوت مكتوم حتى صدر مني أنين خافت فانتبهت المعلمة لي ثم جاءت إلى مقعدي وكانت تظن أني لا أعرف الإجابة ولكني أخبرتها أني لا أعرف الأسئلة لأني لم أرها، تعاطفت جدًّا معي وتضايقت أن معلمة فصلي لم تُخبرها بمشكلتي..

أملت عليّ الأسئلة ثم بدأت بالكتابة كالمجنونة وكان قلمي يصرّ بصوت أعلى من صرير أي قلم من أقلام الآخرين، وعندما قرع الجرس كنت في طور إنهاء إجابة السؤال الأخير، حمدت الله أنه أخرجني من ذلك المأزق وغمرتني سعادة كبيرة لأني تمكنت من تسليم ورقتي مع الباقين.

تملكني الخوف من الامتحانات طوال سنواتي الدراسية، خوف مختلف، فبينما يخاف التلاميذ الامتحانات لعدم القدرة على الإجابة، كنت أنا أخاف من عدم القدرة على رؤية الاسئلة، ففي الغرف المكتظة لم يكن من السهل أن تتذكر المعلمات أني عاجزة عن رؤية السبورات.

خلال أيام الدراسة لم يكن يُزعجني العمل اليومي على السبورة، كان زملائي في الصف لطفاء للغاية بسماحهم لي بنسخ أسئلة دروسنا أو نسخ أي شيء آخر عن دفاترهم..

وإن لم يتيسر ذلك، كنت أتسلل إلى الصف إما باكراً قبل وصول المعلمة أو مساءً بعد مغادرتها حيث يكون في وسعي تثبيت عيني على لوح السبورة والسير ذهاباً وإياباً لنقل الكلمات كلمة كلمة دون أن يراني أحد.

****

كان هذا جزءًا بسيطًا من معاناة طفلة بالكاد تستطيع الرؤية بعين واحدة حيث طُمست عينها الأخرى، أنا أشعر بالخجل من نفسي التي كانت تسخط لأتفه الأمور، بساطة أمور حياتنا تخفي داخلها عُقدًا لا نشعر بها.

لربما أصبحت تلك الوظيفة التي هي الآن مثار ضجر وبطر وشكوى حُلمًا من أحلامك وربما وضعتها على قائمة الأحلام المُستحيلة بدلاً من كونها على قائمة روتينيات الحياة..

تُخبرنا هذه الطفلة أن سبيلها الوحيد للمذاكرة هو أن تُلصق الكتّاب بوجهها ليصبح قريبًا جدًّا من عينها السليمة حتى يتسنى لها قراءة كلمة كلمة، أما الكتب الثقيلة التي لا تستطيع يداها حملها، فكانت تضعها على الأرض وتنكب عليها حتى تقرأ ما فيها وإن لم تفعل فلن تتعلم شيئًا!!

تفكرت.. هذا المشوار الذي أنهيته توًّا في شراء بعض الكُتب لي من مكتبة بالقرب من بيتي، وتلك البهجة التي غمرتني وأنا أرتبها وأنظر فيها دون عناء قبل أن أسكنها رف مكتبتي، كيف كان سيبدو هذا كله لو أنني بالكاد أرى؟

لو جاءتك مكالمة هاتفية وأنت تقود سيارتك عائدًا للبيت، فوضعت سماعات الهاتف في أذنيك واسترسلت مع المُتحدث حتى وجدت نفسك أمام بيتك وأنت لا نتذكر كيف كان الطريق أو تفاصيل قيادتك للسيارة، هذا الحدث الذي تم بشكل تلقائي جدًّا ودون وعي منك ربما كان سيصبح من أثقل الأمور في حياتك لولا سلامة عينيك، وستكون مضطرًّا حينها لأن تحفظ عدد درجات سُلم بيتك أو عدد الخطوات التي تأخذك من المصعد إلى باب شقتك..

وتلك اللحظات التي جعلنا الله فيها سببًا لتخفيف ألم أو إنقاذ حياة، حين ينتفض قلبنا قبل أطرافنا فنسابق كل شيء لحمل ابن إلى طبيب أو حمل طبيب إلى حبيب، لو لم يكن لنور العين فضل غير هذا لكفى.

مرت هذه الفتاة بأسعد لحظات حياتها عندما أخبرها الطبيب بأنه يمكنها إجراء عملية باستبدال العين الذابلة بعين اصطناعية، هي لن تتمكن من الرؤية بها في الحالتين لكنها كانت سعيدة جدًّا فقط لأن مظهرها سيبدو طبيعيًّا وسط الناس!

أيها الشاكي وما بك داء.. كيف تغدو إذا غدوت عليــــلا
والذي نفسه بغــير جــمال.. لايرى في الوجود شيئًا جــميلا

رغم أنها كانت ترى فقط بعين واحدة وكانت قوة بصر تلك العين تُعادل فقط ٤ على ٦٠، إلا أنها كانت سعيدة جدًّا بهذا القدر الضئيل من الرؤية، ممتنة لذلك النور الذي تراه، وقد قالت بعد عشرين سنة من تركيب العين الصناعية: ليس هناك أحد عاش حياة مفعمة بالعمل والسعادة مثلي منذ ذلك الحين.

في العقد السادس من عمرها، أجرت بورغيلد دال **Borghild Dahl** الكاتبة والمعلمة صاحبة تلك السيرة جراحة بالعين لزيادة قوة إبصار عينها السليمة حيث تسنى لها لأول مرة منذ طفولتها أن ترى الأشياء بوضوح مثلنا، نعم هي ترى بعين واحدة لكنها وصفت سعادتها تقول:

كيف يمكن للمرء أن يشتكي وقد أتيح له أن يستمتع بكل هذا الجمال؟!
مشيت في الشارع الرئيسي لأول مرة دون حذر
نظرت إلى واجهات المحلات وذُهلت لتشكيلات البضائع الرائعة
فلم أر الألوان على طبيعتها منذ وُلدت
كانت المباني مثيرة أيضاً حيث بدت برّاقة ولامعة
وكنت دائماً أراها ضبابية قبل ذلك..

زرت عددًا كبيرًامن أصدقائي وأقاربي في ذلك اليوم
تعمدت المشي في طرق مختلفة
فلم أُرِد تفويت أي فرصة لرؤية ما يمكنني رؤيته

فقد كنت أشبه بطفلة تُسرِع لتُريهم لعبتها الجديدة التي حصلت عليها كهدية.. تلك الهدية كانت عيني التي ترى كل شيء بوضوح.

****

أما بعد..

هل فكرت أن تُخبر أحدهم مرة أنك سعيد
بل سعيد جدًّا
فقط لأنك تُبصِر، لا لسببٍ آخر!!

هل حدثت نفسك من قبل مواجهًا ذلك الهم الذي يُطاردك مُذَكِّرًا إياها أنك تمتلك مُقلتين في وجهك مُلك الأرض كلها لا يُعادلهما؟

ستختفي تلك الهموم التي تُطاردك لو وقفت مواجهاً إياها بدرع الحمد، ستبدو كهلة مُتعبة لا تقوى على مواجهة جبال النِعم فيك وحولك..

قف ها هنا ولا تَمْضِ قبل أن تتخذ للبصر حمداً تداوم عليه فيخر شيطانك مهزومًا مكسورًا وقد أفسدَ الحمد خططته الأولى:

«ولا تجد أكثرهم شاكرين»

بدلًا من أن يسرح بك شيطانك
فيصوّر لك فقرًا لم يأتِ وضياعًا ليس قدرك
ومصيبة لم تُذكر في كتابِك

صوّر له أنت حمدًا أنيقًا زاهيًا تكيده به
فتمسي كل طرفة جفن تسبيحة وكأنك ملاك يعيش على الأرض
متعبد داخل محراب الرضا.

(٥)

كنت أسمع

"لن أسمع القرآن مرة أخرى"

كانت هذه أول كلمات كتبها حين علم أنهُ أصيب بالصمم، فجأة تبخرت كل الأحلام والآمال ولم يتبق إلا تلك الأُمنية. عظيمة تلك الشدائد التي تعصف بتوافه الأمور وتُبقي أهمها، ذلك الأهم الذي ظل يُلح علينا لنُبادر إليه ولكننا استغشينا آذاننا..

تلك الحياة التي كانت مليئة بالصخب أصبحت الآن صامتة وكأنه يعيشها من وراء زجاج، وذاك الصوت الذي طالما ارتفع على الكبير والصغير أصبح عاجزاً الآن عن رد السلام.

ذلك العقل المليء بالحُجج والمنطق الذي طالما قصف جبهة ناظريه، فجأة أمسى لا يعلم أحد ما فيه، دُفن المنطق وتجمدت الحُجج، يجاهد صاحبه كي يُبلغ أبسط الكلمات لمُستمعيه، تُراه يلوح بيديه ويبحث هنا وهناك عن شيء يوصل المعنى بعد أن عجز فيه.

هو الآن يمشي بلا صوت كما تمشي المياه على المياه أو الهواء على الهواء، يمشي يملأه الحنين لسمعٍ ذهب وترك حُزناً على جبينه، يمشي بطيئاً حاذراً متلفتاً بعد أن كانت خطوته سريعة تضرب الأرض تكاد تخرقها.

كتب الأطباء التقارير العلمية المُعقدة والتشخيص الدقيق لِما أصاب صاحبنا، وأخذوا يتناقشون بينهم بمفردات طبية فريدة بحثاً عن الأسباب، لكن صاحبنا هو من كتب بيديه أدق تشخيص وأعقل سبب حين خط: نَسيت شكرها!!

نسيت شكرها.. حين تجاهلت الأذان مرارًا، كم ألف أذان دق طبول أُذني ولم أستجب له، انتفض السمع لهجري فهجرني بلا عودة، ومَل الأذان بَلادتي فانقطع عني يقول: إن لم يكن صفو الوداد طبيعة، فلا خير في ودٍ يجيء تكلفا.

نسيت شكرها.. حين كنت أتلذذ بالغيبة على هذا والنميمة في ذاك، أسكرتني مجالس النميمة التي لا ملل فيها وأنا لا أدري أن الشكر اشتكاني لربه وأن نعمته أوشكت على النفاد.

نسيت شكرها.. حين مزقت كلماتي صدور مستقبليها كأنها السهام، تلك الكلمات التي لم ألقي لها حساباً وتلك التي تعمدت قذفها وأنا يملأني إحساس الظفر، فكم ضاقت صدور بفعلي وليتني علمت أن انشراحها ثمنه صمتي.

نسيت شكرها.. حين ضحكت مازحاً مع هذا الذي خاض في الصالحين والأولياء وطربت معه حتى إعتادت أذُني خوضه فاستحيت مستجيرة بالصمم قبل أن أستحي أنا.

أنا الآن أعيش حياة مختلفة عن تلك التي كان يملؤها الصراخ والصخب والنميمة والكذب، أدركت الآن أن شكر النِعم ليس قولة الحمد لله فقط، بل العمل بها، كل حرف قرآن تسمعه هو شكر، وكل غيبة تُنصت إليها هي سخط، كل كلمة طيبة تقولها شكر وكل كلمة خبيثة سخط.

قوانين القرآن واضحة ثابتة لا تبديل فيها:

«لَئِن شكرْتُم لأَزيدنكم ولَئِن كفرْتُم إن عذابي لشديد»

إن لم تكن شاكرًا للنعمة فأنت كافر بها، وإن كنت محظوظًا مثلي فستُعاقب على كفرك بالنعمة في الدُّنيا وإلا فسيكون العقاب هناك في الآخرة يوم تطيش الموازين وهو أشد من صمم الدنيا.

أكتب لك هذه الكلمات آملاً أن تكون من الشاكرين، كلماتٌ حبرها من تعب، فاعمل بها لعلك ترضى..

الآن قد علمت كم كانت همومي تافهة وأحزاني بسيطة، نعم.. في ذلك العالم الصامت الذي أعيشه يبدو كل شيء دونه يسيرًا..

هذا العالم يعيش فيه أكثر من أربعمائة مليون شخص حول العالم
روتينيات حياتك بالنسبة لهم تحديات..
وتحدياتك لهم روتينيات يعيشونها كل يوم..
توافهك لهم أحلام
وأحلامهم أنت عشتها حتى مللتها

تلك الشكوى التي تسترسل فيها كأنك عازفٌ كلما مست الدُنيا أوتار ترفك، يتعجبون منها في صمتهم وودوا لو يخبرونك بأنك تعصي رب النعمة بالنعمة، ففي عالمهم لو وُهبوا عدد كلمات شكواك فقط لانفرجت أساريرهم ولأنفقوها حمدًا، عسى رب الحمد يزيدهم.

ابتسم.. فأنت تسمع وتنطق.

(٦)

أنتُ حر

لقد كانت عربة السجن تقل خمسين سجينًا، ولها فتحتان صغيرتان مدعمتان بالقضبان، وكان بالعربة مكان يسع مجموعة واحدة فقط لكي ترقد على الأرض بينما يقف الآخرون لساعات على أصابع أقدامهم ويسترق الواحد منهم النظر عبر رءوس الآخرين المتزاحمة من خلال قضبان النافذة الصغيرة، وتملكنا آنذاك شعور بأننا أقرب إلى الأموات منا إلى الأحياء.

في الليلة الأولى بهذا المعسكر خلدنا إلى النوم في فراش يتألف من طوابق، وعلى كل طابق يرقد تسعة رجال على الألواح الخشبية مباشرة يشتركون جميعهم في الغطاء ببطانيتين، وكان لزامًا علينا بطبيعة الحال أن نرقد فقط على جنبنا متزاحمين ومتراصين في مواجهة بعضنا الآخر..

كانت لحظة الإيقاظ هي أكثر اللحظات بشاعة في الساعات الأربع والعشرين من حياة المعسكر، وذلك حينما كانت تُمزق الصفارة سكون الليل وهدوءه بما كان يصدر عنها من أصوات ثلاثة هي أشبه بالعاصفة المُدوية لتوقظنا بلا رحمة من نومنا المُثقل بالتعب والإنهاك..

عندئذ نبدأ بالتصارع مع أحذيتنا المُبللة حيث ندفع فيها أقدامنا المُتقرحة المتآكلة بمعاناة ومشقة، وكان من المُعتاد أن نسمع في ذلك الوقت أنينًا وعويلاً من جراء صعوبات تافهة مثل وخز الأسلاك التي حلت محل أربطة الحذاء..

ذات صباح.. سمعت زميلًا لي ممن كنت أعرف فيه الشجاعة والاعتزاز بالنفس، يصيح كالطفل لأنه كان مضطرًّا في النهاية أن ينزل حافي القدمين إلى أرض الطابور المغطاة بالثلج لأن حذاءه قد انكمش حيث تعذر عليه أن يُدخل قدميه فيه!!

كانت مؤونتنا من الطعام عبارة عن حساء خفيف للغاية يُقدم إلينا مرة واحدة فقط في اليوم وكسرة الخبز الضئيلة المعتادة، وقد قام أطباء المعسكر بحساب السعرات الحرارية التي يستهلكها السجين في عمله أثناء اليوم، لذلك كان يُقدم لنا طعام يحتوي على ربع ذلك العدد من السعرات حتى يضمنوا موتنا تدريجيًّا نتيجة الهزال..

كانت الرغبة في الطعام الجيد بمثابة أحلام جميلة تتمركز حولها حياة السجين النفسية، فكان غالبية المسجونين حينما يعملون بالقرب من بعضهم الآخر يبدءون فوراً بالتحدث حول شئون الطعام إذا تغيبت عنهم رقابة الحارس لفترة وجيزة، ويسترسلون في الحديث ليصوروا كل ما يتخيلونه بالتفصيل حتى يسري في نفوسهم شيء من البهجة تقطعها همسات التحذير.. "الحارس قادم".

كان علينا أن نرتدي نفس قمصاننا لمدة نصف عام، إلى درجة أنها كانت تفقد كل معالم كونها قمصاناً..

كانت تمر علينا أيام كثيرة لا نستطيع فيها أن نغتسل، حتى ولو جزئيًّا، بسبب تجمد المياه في الصنابير، وربما كانت نتعرض أطرافنا للتقرح بسبب انتشار البثور عليها..

إن كان المرض يعني عند البشر الراحة والعناية والدواء، فقد كان يعني لنا الموت، أيّ سجين تبدو عليه علامات الهُزال والضعف وعدم القدرة على العمل الشاق يُرسل إلى أفران الغاز مباشرة للإعدام، لذلك كان يُظهر السجناء المرضى البأس ويتظاهرون بالقوة حتى يؤخروا هلاكهم بعض أيام..

ومع ذلك كانت تتسارع دقات قلوبنا أضعافاً حين يلعب الحُراس القمار حيث يكون مصير أحدنا مُتعلقًا بقرار الفائز الذي يختار رقماً عشوائيًّا..

كان هذا الرقم يعني إعدام صاحبه..

كانت تغيرات الطبيعة التي ألفها معظم البشر هي أجمل اللحظات في حياتنا التي نعتمد عليها في بعض الأحيان لننسى الظروف الباعثة على الفزع، فقد يوجه السجين انبتاه زميل له يعمل بالقرب منه حتى يرى المنظر الخلاب لغروب الشمس وتخلل أشعتها للأشجار الجميلة الطويلة..

ذات مساء حينما كنا مستلقين على أرض كوخنا حيث أضنانا التعب بعد يوم عمل شاق، دخل علينا أحد الزملاء مندفعاً وطلب منا أن نهرع إلى الأراضي المحيطة بنا لنرى المنظر العجيب لغروب الشمس، رغم تعبنا إلا أننا وقفنا خارج الكوخ لنُبصر السحب نتقد والسماء كلها تتألق من اللون المشوب بالرمادي إلى اللون الأحمر.. رغم تعبنا إلا أننا خرجنا لنرى ذلك المشهد الجميل فلعله هو الوحيد الذي يرسم شيئاً من البسمة على وجوهنا.

****

هذه ليست أحداثًا خيالية رُويت في رواية مثيرة، بل هكذا كان يعيش فيكتور فرانكل Victor Frankel في معسكرات اعتقال النازية حيث وجد نفسه مُتعريًا متجردًا في وجوده، وكان يتوقع الإبادة في كل ساعة.

فأحياناً وبينما هو يتحدث مع زميل له إذ يقطع صوت الحارس الأجش حديثهم مناديًا برقم زميله. وما هي إلا دقائق معدودة حتى يجد جثة زميله ملقاة في أرض المعسكر مع كومة الجثث الأخري..

هل فكرت في نعمة الحرية من قبل؟!

هل صادف أن ناجيت ربك يوماً وشكرته لأنك حُر!!

سريرك المُرتب المُستوي ذو الفراش الناعم الهادئ هو حُلم ومصدر سعادة حقيقي لأولئك الذين يفترشون الأرض الصلبة، مُلتصقين بعضهم البعض، ويُضطر بعضهم أحياناً إلى النوم جلوساً أو وقوفاً..

حمامك الساخن المُنعش الذي تستقبل به يومك كل صباح، هناك من ينتظر دوره أيامًا حتى يغتسل كُليًّا بقدر من الماء يعادل الذي تغسل أنت به وجهك فقط..

ثيابك الجميلة التي تختار منها أحسنها وأنظفها، وتُقسمها كل لمقامه، هناك من هو مضطرٌّ لارتداء نفس الثوب لسنوات دون تغيير حيث إن مقام نومه هو محيط حياته ويُسمح له بغسله مرة واحدة فقط كل أسبوع.

ذلك الوقت الطويل الذي تقضيه حائراً.. ماذا تأكل وأين تأكل حيث تزاحمت عليك الأصناف والأنواع، هناك من يأكل نفس الطعام كل يوم حيث لا يحق له حتى أن يطلب غيره أو يستزيد منه، وهناك في جانب آخر من لا يجد طعامًا يأكله أصلًا..

استقرار نبضات قلبك التي لا تضطر دقاتها أن تتسارع فجأة عشرات المرات كل يوم هو نعمة فقدها هذا الذي لا يعرف مصيره ومزق الخوف أعماقه، نتلاعب به بضع كلمات أو قرارات فيها هلاكه..

تلك ليست دعوة لتنغيص حياتك

هي فقط تذكِرة!

أن كل هذه الروتينيات التي تبدو تافهة.. تلقائية.. مُسلم بها

هي حُلم ومصدر سعادة حقيقي للكثير

استمتع بها واطلب المزيد منها لكن لا تنسَ شكرها

اقتطع بضع لحظات من حياتك المُتسارعة وأظهر شيئاً من الامتنان لرب منحك تلك النِعم العظيمة وأدامها عليك حتى أصبحت روتينية..

تذكرها بين الحين والآخر خياراً

بدلاً من أن تُضطر لتذكُّرها رغماً عنك

حين تفتقدها..

فأنت حُر!!

(٧)

أشياؤنا أحلامهم

تُراب..

كان هذا حلم قرية كاملة في كامبوديا..

لم يطلبوا طعامًا ولا ماءً ولا بناء مسجد، بل طلبوا تُرابًا!!

قرية فقيرة من المسلمين تقع في منطقة طينية، فكلما حفروا لدفن موتاهم وجدوا ماءً بسبب التربة الطينية التي تُخزن مياه الأمطار، فكان حلمهم أن يحصلوا على رمال كافية فيفرشوها فوق الأرض لدفن موتاهم دفنة كريمة.

أصبح التراب أمنية لبعض البشر، وفي قرية أخرى كانت الأمنية سورًا!!

نعم.. ظل أهل قرية فقيرة تقع وسط غابات يعانون سنوات وسنوات لأنهم لا يمتلكون بناء سور للمقبرة الكبيرة التي يدفنون فيها موتاهم، فيؤدي ذلك إلى هجوم بعض الزواحف الكبيرة الشرسة فتنبش القبور وتأكل الموتى، أتُرى كيف هو شعورهم وهم يرون أحبابهم يؤكلون!!

انحصرت كل أمانيهم في تُراب
تُراب لدفن موتاهم وتُراب لبناء سور
لم أكن أدري أن التراب أمنية والرمال حُلم
نجلت من نفسي وأنا أرى فرحة هؤلاء بالتُّراب
فسجدت على التُراب أقول:
ما قدرناك حق قدرك يا الله
ربي لك الحمد على نعمة التُراب

ماء..

شعرت بالعطش فاستغرقت ثواني لأحضر كوب ماء بارد ولا أتذكر فترة من حياتي كان الحصول على الماء عقبة، نعم أحياناً كانت تنقطع المياه لساعات لكن كانت المياه المُخزنة تكفينا تلك الساعات.

أيضًا لا أتذكر مرة ذهبت فيها لأشتري زجاجة مياه فلم أجد، الماء دائماً موجود في حياتي للشرب والطهي والاغتسال، ولا أعتقد أن أحدًا من عائلتي أو أصدقائي أو جيراني أو أهل المنطقة التي أسكنها وربما من أهل مدينتي وضع الماء في قائمة أحلامه..

لكني رأيت مَنْ حُلمه الماء..

عجوز تجاوزت التسعين من عمرها تعيش في قرية نائية في تنزانيا، تمشي كل يوم أكثر من ساعة في طرق متعرجة صلبة حتى تحصل على ماء يكفيها يومها، أترى كم تستطيع أن تحمل من الماء تلك العجوز الضعيفة؟!

رغم أنها تعيش في شبه كوخ بأدوات بدائية جدًّا إلا أنها لم تطلب بيتاً بل فقط طلبت ماءً، حُلمها أن تحصل على الماء دون الاضطرار للمشي ساعة كل يوم!!

بدت همومي وكأنها واوات وصلٍ على سطرٍ بلا جُمل
تافهة ذابلة فارغة
مثل كتاب سقطت منه الكلمات
رأيت الماء كما لم أره من قبل.. رأيت الماء حُلماً
عاهدت نفسي أن أحتضن قطراته حمداً وأبتسم لخريره شكراً.

لم يصل الماء لكوخها بل كان على بُعد أمتار، مع ذلك تخللت تجاعيد وجهها ابتسامة دافئة حانية، فحُلمها تحقق والماء أصبح قريبًا منها ليس ببعيد، سترت دهشتي لفرحتها..

لا أدري أنحن نسينا أم أنسانا الشيطان، من منا يتحمل أن يعيش والماء على بعد أمتار من بيته؟ من يطيق هذا؟ بل من يطيق أن يعيش على ماء في جالونات وليس في أنابيب وصنابير؟ مع ذلك فرحة العجوز أخجلتني، فتوضأت بالماء حمداً عليه وصليت لله شاكراً..

بيت..

لا أقصد هنا بيت العمر الذي تحلم أنت به أو البيت الذي تعيش فيه الآن وما يحوي من أثاث وأضواء ومرحاض ومطبخ وأجهزة كهربائية، فربما لو رأى هؤلاء بيتك لظنوا أنهم في الجنة، بل قصدت شيئاً له أربعة جدران فقط تمنع دخول الحيوانات المفترسة، وسقف يمنع دخول مياه الأمطار.

هذا حُلمهم.. لا يريدون أثاثًا ولا أضواء ولا أجهزة تبريد وتدفئة، ففي الصومال ليس غريبًا أن تجد عائلة مكونة من اثني عشر فردًا تعيش في كوخ دائري قطره أربعة أمتار، هذا الكوخ مصنوع من نفايات البلاستيك والصفيح، يغشاه الظلام في النهار حيث إن له فتحة صغيرة واحدة هي بابه!!

إذا انقطعت الأمطار أصابهم الجفاف وربما الموت، وإذا هطلت الأمطار بغزارة ربما غرق كوخهم فيضطرون إلى بناء كوخ جديد..

هذا الكوخ ليس بيتاً مؤقتاً لهم سكنوه لحدث عابر، بل هم يسكنونه لعشرات السنوات ولا يتوافر لديهم المال لبناء أربعة جدران من الحجارة، ولا تتعجب حين أُخبرك أن رب الأسرة لا يملك خمسة دولارات لإلحاق أحد أبنائه بالمدرسة حيث رسوم الفصل الدراسي فيها تعادل ثمن ساندوتش نبتاعه نحن "كسناكس" يسد جوعنا بين الوجبات الرئيسية.

حين ترى مياه الشرب التي يعتمد عليها هؤلاء ربما تأبى أن تغسل بها سيارتك حيث مال لونها إلى الأصفر وتجمع في قاعها عدد لا بأس به من الحشرات، مع ذلك يشربونها حيث لا يتوافر مصدر آخر.

لا أدري.. أنحن الذين اخترنا البؤس منهجاً، أم هم الذين اختاروا الرضا واقعاً، تُزين وجوههم ابتسامة جميلة هادئة، اخترنا الشقاء مع ترفنا قبل أن يختارنا واختاروا الرضا مع فقرهم فأحسن جوارهم..

أبسط الأشياء تُسعدهم وأبهظها لنا مخزية
توارثوا صفة الرضا حتى أصبحت معدية
ونسينا تراثنا.. وقول حبيبنا
من أصبح في سربه آمناً.. فقد حاز الدنيا مستوفية

الزحام..

نعم.. ذلك الزحام الذي يثير جنوننا، ويصيبنا بالتأفف والتذمر إن تأخرنا بضع دقائق أو ربما أصابنا الصراخ والقتال إن تعدى التأخير ساعة، هو نعمة يتمنى سكان دول بأكملها أضعاف هذا الزحام مقابل تيسير انتقالهم.

في ذلك العصر الذي تيَسر فيه السفر عبر القارات خلال ساعات معدودة، ما زالت دول كاملة تعتمد على الدواب في تنقلها، تحت لهيب الشمس أو في وجه الرياح أو أسفل الأمطار الغزيرة تجد أحدهم راكباً دابة مستقبلاً يومه (أو أمسه) ساعياً إلى رزقه..

ربما يستهلك هذا سبع أو ثماني ساعات كاملة للذهاب فقط إلى مكان سعيه، وبعد هذه الرحلة الشاقة يبدأ المسكين عمله الذي هو أشق من رحلته من أجل تحصيل قوت يومه، هذا ليس خيارًا أو خيالاً، بل رأيت دولًا في إفريقيا وآسيا ما زالت تعتمد على الدواب والمشي للتنقل.

هو يستهلك أضعاف ما نستهلكه من وقت للذهاب إلى أعمالنا، هو يركب دابة متعبة وشاقة مُتعرضاً للهيب الشمس أو سقيع البرد أو مطر السماء بينما نحن نحتمي داخل مركبة سواء كانت خاصة أو عامة، مع ذلك هو يحصل على أجر أقل بكثير ممن نحصل عليه.

ألا يستدعي هذا منا أن نشكر الله على هذه النعمة ونقول سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، ما كنا له مُطيقين، فنحن لا طاقة لنا بهذه المركبات والدواب لولا أن سخرها الله لنا، فهي تفوقنا إما في القوة أو السرعة أو الحجم، فتلك نعمة من الله نسينا شكرها، ولما فاضت علينا وكَثُرت وضعنا فوق النسيان سخطًا.

ما كنا له مقرنين.. حين فلت زمام السيارة فاصطدمت وتهشمت.
ما كنا له مقرنين.. حين سقطت الطائرة ولا حول لمن فيها.
ما كنا له مقرنين.. حين غرقت السفينة رويدًا ولا قوة لطاقمها بإنقاذها.
حقًّا ربي.. ما نحن لها بمقرنين

فالحمد لله على نِعم لم نراها
وُجِدنا فوجدناها
فظننا أنها حق لنا.. ونسينا أننا نسيناها

(٨)

سعادة العافية

أن يتغير كل شيء في ستة أيام فقط، كل شيء، أن تعيش حياة مختلفة تماماً وكأنك شخص آخر، حينها سوف تُدرك كم كانت حياتك العادية الروتينية مُبهرة، ستنتبه فجأة أنك كانت تنهال عليك الأرزاق كل يوم دون انقطاع وكأنها المطر، لكنك صنفت الأرزاق حسب رغبتك، فاعترفت بهذا وأنكرت ذاك.. فانتبه!!

يوم أصبحت في صحة وعافية فاعلم أنك في هذا اليوم قد رُزقت ما كنت قد تنفقه على المرض وغير العافية

اجعل لحياتك معنى قبل فوات الأوان

كان هذا عنوان مذكرات بول كولانثي **Paul Kalanithi** الرجل الذي تحولت حياته فجأة من طبيب إلى مريض سرطان في ستة أيام فقط، بل وصل به الحال أنه كان يغبط مرضى السرطان الآخرين، فمرضه كان من الأنواع الأشد فتكاً حيث يشكل **٢٥%** من جميع وفيات السرطان.

إن لم يصل بك الحال أن تغبط مريض سرطان على حاله، فاعلم أنك في حصن العافية وفاضت نِعم الله عليك، فاحمد الله مستغفراً واشكره حياءً، ذكر نفسك بأنك مهما كان ما تمر به مؤلماً، فهناك من أصبح الألم حياتهم.

وإذا لم يُمثل لك خبر استبدال العلاج الكيميائي بأقراص دوائية أي أهمية، فاعلم أنك في ترف من الحياة، فكُفّ عن الشكوى، فإن هذا الخبر مصدر سعادة حقيقي للبعض وسبب لانشراح الصدر وكافٍ لرسم ابتسامة عريضة على وجوه أصبح دواؤها، الذي يُفترض أن يكون مُسكن آلامهم، هو ذاته مصدر ألم.

تبدل العافية:

قلبتُ صور الأشعة المقطعية، حيث كان التشخيص واضحاً، فالرئتان مغطاتان بعدد لا يُحصى من الأورام. والعمود الفقري مشوه. مع تلف فص كامل من الكبد. إلى جانب انتشار السرطان على نطاق واسع.

كنت جراح أعصاب مقيمًا. على وشك إنهاء سنوات التدريب. وعلى مدار السنوات الست الماضية فحصت عشرات الصور المماثلة. لعلي أتخذ إجراء قد يساعد المريض. لكن هذه الأشعة كانت مختلفة، فهي صورة الأشعة الخاصة بي. ومع ذلك يبدو أنني لا أستطيع مساعدتي.

لم أكن أرتدي الحلة الطبية الخضراء أو المعطف الأبيض كعادتي. بل كنت أرتدي ثوب المريض. بينما اتصلت ذراعي بأنبوب المحلول الوريدي منتظراً من يبث لي الأمل كما كنت أفعل مع المرضى.

يبدو أن فصلاً من حياتي قد انتهى، أو ربما كتّاب حياتي بكامله على وشك أن ينغلق، وبدلاً من أن أكون يد العون التي تساعد المرضى على تغيير حياتهم، شعرت بأنني شاة تائهة ومُشتتة، فالمرض الخطير لا يُغير الحياة فقط، بل أحياناً يدمرها.

قضيت أفضل جزء من الأسبوع طريح الفراش يتطور السرطان بداخلي، وأصبحت واهناً بشكل ملحوظ، كما تغير جسدي كثيراً وكذلك تغيرت الهوية القابعة داخل هذا الجسد.

لم يعد ترك الفراش للذهاب إلى المرحاض عملية حركية آلية، بل أصبحت تطلب جهداً وتخطيطاً..

لذلك وضع لي أطباء العلاج الطبيعي قائمة ببعض الأدوات التي من شأنها تسهيل انتقالي عندما أغادر المستشفى وأذهب للبيت، كالعصا، ومقعد مرحاض قابل لتعديل وضعيته، وألواح من الفلين لدعم الساق وقت التمدد في الفراش، كما وصفوا لي مجموعة جديدة من مسكنات الألم.

عندما خرجت من المستشفى، سألت نفسي مُتعجباً، من ستة أيام فقط كنت أقضي ما يقرب من ست وثلاثين ساعة متصلة في غرف العمليات كطبيب، هل تمكن مني المرض إلى هذا الحد خلال أسبوع واحد فقط!

انخرطت عائلتي في دوامة تحويل حياتي من حياة طبيب إلى حياة مريض، فأنشأنا حساباً في إحدى الصيدليات لتوصيل المُستلزمات الطبية وطلبنا مسنداً للسرير، واشترينا مرتبة مريحة لتخفيف آلام الظهر الحارقة.

أصبحت ميزانيتنا المالية محفوفة بالمخاطر بعد أن كانت منذ ستة أيام فقط على وشك أن ترتفع إلى خمسة أضعاف بحلول العام الجديد، وبدا أنه من الضروري أن نبحث عن بدائل مالية جديدة لحماية زوجتي بعد وفاتي، لكن والدي كان يرى أن هذه الأفكار تعد استسلاماً للمرض، وأنني سوف أهزمه، لكن لم يكن لدي رد كي أقوله لوالدي.

سعادة مختلفة:

أعرف بالفعل أن جميع مرضى السرطان يعانون، لكن هناك نوعاً من السرطان يمكن هزيمته، وهناك نوع آخر تعجز عن التعايش معه، فقد كنت مصاباً بالنوع الثاني.

غمرتني السعادة حين علمت أنه تم استبعاد العلاج الكيميائي وأصبحت حبوب تاريسفا البيضاء علاجي، وسرعان ما بدأت أستعيد بعض قوتي بعد وقت قصير من تناول الحبوب، حينها بدأت أشعر ببصيص من الأمل، قوة المرض تجعلك تشعر بالبهجة مجرد أن تستعيد شيئًا من حياتك الروتينية العادية.

عادت شهيتي للطعام واكتسبت القليل من الوزن، لكن بدأت البثور المؤلمة التي تقترن باستجابة الجسم الجيدة للطعام تظهر على بشرتي وصارت تنزف باستمرار بفعل أدوية سيولة الدم؛ فها قد بدأ كل ما يجعلني وسيماً يتلاشى ببطء، رغم كل هذا وحتى أكون مُنصفاً كنت سعيداً لأنني مازلت على قيد الحياة بجانب عائلتي.

ويمكنني القول إن أحد مميزات المرض أنه يرتب لك أولويات حياتك رغماً عنك، فنحن بني البشر كثيرو المماطلة كلما توافر لدينا الكثير من الخيارات.

مع بداية تلقي العلاج الطبيعي لم أكن قادراً على رفع أي ثقل بعد، بل كنت أرفع ساقي فقط، كان ذلك الأمر مرهقاً ومهيناً؛ فعلى الرغم من أن عقلي كان سليماً، لم أكن أشعر بأنني الشخص ذاته الذي كنت عليه، فقد أصبح جسمي خائر القوى وضعيفاً، إذ صار الشخص الذي يمكنه الركض لأكثر من عشرين كيلومترًا مجرد ذكرى..

أصبحت أحد أكثر الأمور تلقائية في حياتي أهدافًا لي تحتاج لبذل الكثير من الجهد والعزيمة لتحقيقها، قيادة الدراجة والعدو، وبالفعل داومت على ممارسة هذين النشاطين يوماً تلو آخر، وكانت كل زيادة ضئيلة في قوتي تفتح لي المزيد من الآفاق الممكنة..

بدأت أمارس التمارين لفترات أطول وبأوزان أكبر مُجهداً نفسي لدرجة أصل معها إلى حافة التقيؤ.. بعد شهرين من التمرينات، أصبحت أتمكن من الجلوس ثلاثين دقيقة دون أن أشعر بالتعب، كما صار بإمكاني الخروج لتناول العشاء مع أصدقائي ثانية، أيضاً نجحت في قيادة الدراجة باهتزاز لمسافة نحو عشرة كيلومترات، أعرف أنها مسافة تكاد لا تُذكر مقارنة بتلك التي قطعناها الصيف الماضي وتُقدر بنحو خمسين كيلومتراً، ولكنني كنت سعيدًا للغاية لأني استطعت حفظ توازني على عجلتين.

كان الموعد قد حان للخضوع لأول أشعة مقطعية لقياس فاعلية عقار تارسيفا الذي أتناوله لمحاربة السرطان..

تسارعت دقات قلبي بشدة

فأي نتيجة مخيبة للآمال سوف تعصف بحياتي!

حدثت نفسي كي أُطمئنها بأنه لو كان هناك نمو صغير في حجم الورم

فإنه ما دام صغيراً، فهذا يعتبر نجاحاً في حد ذاته..

التقطت أنفاسي مستعدًّا لفحص الأشعة المقطعية الخاصة بي

فظهرت رئتاي اللتان تخللهما عدد لا نهائي من الأورام من قبل

نظيفتين عدا من عُقيدة حجمها سنتيمتر واحد أعلى الفص الأيمن

وبدا أن عمودي الفقري قد بدأ يشفى

كما تقلص حجم الورم بصورة كبيرة وواضحة

انتابني شعور غامر بالارتياح..

فقد كانت هذه أكثر اللحظات سعادة خلال فترة مرضي السابقة!

سعادة مختلفة.

من أنا؟

وفي عطلة نهاية الأسبوع، كان هناك اجتماع مع خريجي قسم الجراحة العصبية، وكنت أتوق لهذه الفرصة لإعادة الاتصال بهويتي القديمة كطبيب، وجدت نفسي مُحاطاً بالنجاح والمستقبل الواعد والطموح، وبأقراني ورؤسائي الذين تسير حياتهم في مسار لم يعد لي، والذين لا يزال ممكناً لأجسامهم تحمل الوقوف لمدة ثماني ساعات متواصلة في جراحة منهكة، وبينما كانت أشعة الشمس بازغة في سماء مستقبلهم، كانت شمس حياتي توشك على الغروب..

لم يسألني أحد عن خططي وهو ما أراحني كثيراً، لأنه لم يكن لديّ أي منها.

لما صرت قادراً على المشي دون عصا، لاح في ذهني أسئلة من قبيل:

من سأكون في المستقبل؟

شخصاً عاجزاً أم عالماً أم مُعلماً !!

ربما أصبح عالم أحياء أو جراح أعصاب مرة أخرى..

أو أباً يجلس في البيت لرعاية الأطفال!!

أتذكر إحدى اللحظات التي كدت أن أستسلم فيها حينما استيقظت متألماً في مواجهة يوم آخر، وشعرت بأنني غير قادر على فعل أي شيء بعد الإفطار، فخطر ببالي أنه لا يمكنني الاستمرار ولكني وجدت نفسي أنهض من الفراش وأخذت خطوة إلى الأمام وأنا أقول: سأستمر.. سأستمر.

في ذلك الصباح اتخذت قراري، وهو أنني سوف أرغم نفسي على العودة إلى غرفة العمليات كجراح لأن هذا هو أنا، أعلم أنه سيكون عليّ أن أتعلم العيش بصورة مختلفة عن تلك التي ألفتها، وأنا أرى الألم وربما الموت زائراً في أي وقت، لكنني قررت أن أعيش إلى أن أموت فعلاً.

وعلى مدار الأسابيع الستة التالية، أجريت بعض التغييرات في برنامج العلاج الطبيعي؛ فصرت أركز على اكتساب القوة البدنية المطلوبة في غرفة العمليات تحديداً لأداء مهام تحتاج إلى طاقة، كالوقوف لساعات طويلة، والتحكم في أدوات الجراحة الدقيقة، وزراعة المسامير التي يحتاج زرعها إلى جهد.

تحسنت قوتي إلى حد كبير فاتصلت بمدير المستشفى لأخبره بأنني مستعد للعودة، فوجدته متحمساً لفكرة رجوعي للغاية، فطلبت أن يرافقني زميل مقيم، لدعمي طوال الوقت في حالة خروج الأمور عن المسار الصحيح، كما تقرر أنني سأجري جراحة واحدة فقط في اليوم.

تقرر إجرائي إحدى جراحاتي المُفضلة التي كنت مشهورًا بإتقانها، ولكنني كنت قلقاً بشدة وقضيت ليلة التحضير للجراحة مستغرقاً في قراءة بعض الكتب الجراحية، أراجع أساسيات التشريح وخطوات الجراحة التي كانت تلقائية جدًّا من قبل، لكن المرض يبدل كل شيء.

عندما وصلت المستشفى، بدلت ملابسي وارتديت زي الجراح الأزرق المألوف لي للمرة الأولى منذ ثمانية عشر أسبوعاً، فقد أعدت كل ألبستي الطبية إلى المستشفى منذ عدة أشهر ظنًّا مني أنني لن أحتاج إليها ثانية.

في أول عملية لي منذ ثمانية عشر أسبوعاً، سار كل شيء على ما يرام إلا أنني شعرت بالدوار مع قرب انتهاء الجراحة، خفتت الرؤية فوضعت الأدوات جانباً وابتعدت عن طاولة الجراحة، وراح الظلام يزيد من حولي ويغمرني شعور بالخفة..

طلبت من مساعدي أن يُكمل الجراحة، وقلت لنفسي سيكون الغد أفضل، وقد كان كذلك بالفعل، فمع كل يوم يمر عليّ، رحت أشعر بأن الحالات كلها مألوفة بالنسبة لي لكنني أعمل بشكل أبطأ..

على مدار الأسبوعين التاليين، استمرت قوتي في التحسن، وكذلك سرعتي وأسلوبي، كما تعلمت يداي ثانية كيف تعالج الأوعية الدموية الدقيقة دون جرحها، واستحضرت أصابعي الحيل القديمة التي تعلمتها سابقاً، وبعد مرور شهر، كنت أعمل بكامل طاقتي.

خيارات المرض:

لعل الجانب الشائك في المرض هو أنك عندما نتعرض له، نتغير منظومة قيمك باستمرار، حيث تحاول معرفة ما هو مهم لك وترتب حياتك طبقاً لذلك، فكنت أشعر بأن شخصاً قد سرق بطاقتي الائتمانية وأصبح عليّ تعلم كيفية العيش بدونها والاقتصاد في الإنفاق..

وقد تُقرر قضاء المُتبقي من عمرك كجراح أعصاب، ثم تغير رأيك، ثم تعود لقرارك مرة أخرى، وأحياناً ترغب في تعلم عزف آلة معينة أو تكريس نفسك للعبادة، وكهذا تظل في محاولة مستمرة لفهم ما هو الأهم وما المهم..

عندما تم تشخيص حالتي، كنت مستعدًّا للموت، حتى إنني انتابني شعور بالرضا حياله، فتقبلته وتأهبت له، بعد ذلك أصبت بالاكتئاب، حيث بدا واضحاً أنني لن أموت قريباً، وهو خبر جيد لكنه مُحير للغاية، فوفقاً للإحصاءات فإنه من الممكن أن أعيش لاثني عشر شهراً أو مائة وعشرين شهراً!!

يا ليته كان بإمكان الطبيب إخباري بأن أمامي ثلاثة أشهر قبل رحيلي حتى أقضي هذا الوقت مع عائلتي، أو يخبرني بأن أمامي عاماً فأؤلف كتاباً، أو عشر سنوات بحد أقصى فأعود إلى عملي كجراح أعصاب، لكن تلك الحيرة جعلتني أعيش يومًا بيوم فكانت الإنجازات الصغيرة في يومي تشعرني بالبهجة كإتمام يوم عمل كامل دون الحاجة للانصراف بسبب حالتي، أو تناولي العشاء مع زوجتي..

مرة أخرى:

بعد مرور أشهر على عودتي للجراحة، حان وقت آخر لفحص للأشعة المقطعية أخضع له قبل إنهاء إقامتي، وقبل أن أصبح أباً، وقبل أن يتحقق المستقبل الذي أطمح إليه..

قررت مراجعة صور الأشعة الخاصة بي، فأدخلت اسمي، وصرت أقلب الصور كأنها كتيب أطفال صغير مقارناً الصور الجديدة بالقديمة، وقد بدا كل شيء كما هو...... ولكن هناك شيئاً جديداً!!

عدت إلى الوراء قليلاً في الصور.. وتفقدتها ثانية
ها هو ذا، ورم جديد كبير يملأ الفص الأيمن الأوسط لرئتي
وقد بدا غريباً كأنه قمر مكتمل يملأ الأفق..
وبالعودة إلى الصور القديمة
تمكنت بصعوبة من تتبع أثره الخافت
والآن ها هو شبح جديد قدِم إلى الحياة مكتملاً.

لم أكن غاضباً أو مرتعباً مما رأيت، بل تعاملت مع الأمر ببساطة، كأنه حقيقة من حقائق العالم، كحقيقة المسافة بين الشمس والأرض..

أدركت أن العقاقير التي سأتناولها هذه المرة ستكون أشرس، واحتمال مقاومتي للمرض بدا أقل بكثير من ذي قبل، وربما يستحيل إجرائي الجراحات العصبية عدة أشهر أو ربما للأبد..

حل المساء وبدأت أتجهز لحالتي الأخيرة، شعرت بهول اللحظة، ربما تكون آخر مرة لي أتجهز فيها لإجراء جراحة، العمل الذي بذلت الجهد والوقت لأجله.. أردت أن يكون كل شيء مثاليًّا هذه المرة، فقمت بالجراحة بدقة بالغة، قررت خياطة الحالة بطريقتي الخاصة، حيث بدت خياطة الجلد مثالية وخالية من الشد، كأنه لم تكن هناك جراحة أساساً.

بعدها بوقت قصير غادرت غرفة العمليات، وبدأت أجمع أغراضي التي تراكمت على مدار سبعة أعوام من العمل في هذا المستشفى، مثل ملابس إضافية لليالي التي كنت أبيت فيها، وفراشي أسنان، وشواحن للهاتف الخلوي، ونموذج الجمجمة الخاص بي، لكنني قررت ترك كتب جراحة الأعصاب فسوف تكون أكثر إفادة واستخداماً هنا..

تساقطت بعض الدموع مني لا إراديًّا، فها أنا أترك المهنة التي أحببتها للأبد كي أعود مريضاً..

ذهبت إلى مركز تلقي العلاج الكيميائي، وتم توصيل ذراعي بالمحلول الوريدي، وجلست على كرسي مريح، فسوف يستغرق ضخ مزيج العقاقير السائلة خمس ساعات؛ لذا قضيت كل هذه المدة ما بين الغفو والقراءة، وأحياناً التحديق إلى الفراغ..

وقد لاحظت تنوع الحالة الصحية لمن يتلقون العلاج الكيميائي معي
فبعضهم أصلع تماماً.. وبعضهم مصفف الشعر
وبعضهم ذابل.. وبعضهم مفعم بالحيوية
وبعضهم أشعث.

كان الجميع يستلقون في صمت
بينما تقطر الأنابيب الوريدية السم في أذرعهم الممددة
وكان مقرراً أن أتلقى جرعة من العلاج الكيميائي كل ثلاثة أسابيع..

وبدأت أشعر بأثر العلاج في اليوم التالي؛ من إعياء شديد، وآلام مبرحة في العظام، كما صار تناول الطعام الذي كان مصدراً عظيماً من مصادر البهجة بالنسبة لي كشرب ماء البحر؛ فعندما تناولت الكعك بالجبن الكريمي المفضل لي شعرت بأنني ألعق الملح فوضعته جانباً..

كما أصبحت القراءة مرهقة، ومرت الأيام بين الجلوس أمام التلفاز، وإرغام نفسي على تناول الطعام، كما احتُجزت في المستشفى عدة مرات بسبب مضاعفات العلاج الكيميائي حيث كنت أحتاج دائماً إلى كمية من السوائل الوريدية لتجنب الجفاف..

تدهورت حالتي حيث بدأت الكليتان تفشلان
وأصبح فمي جافًّا تماماً بحيث لم أعد أستطيع الكلام أو البلع
كما أظهر فحص المختبر بلوغ معدل الصوديوم في دمي نسبة شبه قاتلة
وتلف جزء من البلعوم
وبناءً عليه تم نقلي إلى وحدة العناية المركزة..

فقدت ما يزيد على ثمانية عشر كيلوجراماً منذ تشخيص إصابتي بالسرطان
وقد خف شعري كثيراً
ها أناذا مستيقظ وواعٍ بالعالم من حولي
لكني ذابل لدرجة أنه بإمكاني أن أرى عظمي تحت الجلد
كأنني صورة أشعة سينية حية
كان مجرد رفع رأسي يعتبر شيئاً مجهداً جدًّا
وكان الإمساك بكوب ماء يحتاج إلى كلتا اليدين
كما لم تكن فكرة القراءة واردة على الإطلاق.

****

توفى بول كولانثي في مارس ٢٠١٥ تاركاً رسالة إلى ابنته ذات عمر الثمانية أشهر قائلاً:

عندما تصلين إلى إحدى لحظات الحياة التي يجب أن تعبري فيها عن نفسك، وتقدمي سجلًّا عما كنتِ، وما حققتِ، وما يعنيه وجودكِ بالنسبة للعالم، أتمنى ألا تتجاهلي حقيقة أنك ملأتِ حياة رجل شارف على الموت ببهجة كبيرة، بهجة لم يذقها في سنواته السابقة، جعلته يشعر بالرضا إلى حد كبير، وهو شيء عظيم في هذه اللحظات من حياتي.

إني وإن كان جمعُ المال يعجبني
فليس يعدل عندي صحةَ الجسد

في المال زينٌ وفي الأولاد مكرمة
والسقم ينسيك ذِكْرَ المال والولد

(٩)

واخفض لهما

يا من اعتدت وجودهما..

وألفت صوتهما..

ثم انشغلت عنهما..

أما آن لك أن تخفض لهما!!

جاء رجل إلى ابن عمر -رضي الله عنهما- يسأله: حملت أمي على رقبتي حتى قضيت بها مناسك الحج أتراني جزيتها.. فقال ابن عمر: لا، ولا بزفرة واحدة من زفراتها (أي طلقات الحمل).

وقدم أحد الصالحين من السفر فصادف أمه قائمة تُصلي، فأبى أن يقعد وهي قائمة، فظل واقفًا حتى انتهت من صلاتها برًّا بها.

وكان حارثة بن النعمان -رضي الله عنه- لا يستفهم كلاماً قالته أمه قط برًّا بها، أي لا يسألها ماذا قالت إن لم يفهمها حتى لا يُرهقها بإعادة كلامها، بل يسأل من فهم عنها بعد أن تذهب.

وآخر يقول أنه لم يعتلِ سطح بيته قط طول مصاحبته لأمه إجلالاً لها، فكان يكره أن تطأ قدمه مكانًا وأمه تجلس أسفله فيكون قد عقها.

وهذا سيد التابعين علي زين العابدين -رضي الله عنهما- كان من أبر الناس بأمه، لكن عاتبه صاحبه مرة أنه لم يره يأكل مع أمه قط، فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها، فأكون قد عققتها!!

عمل واحد:

وها هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- الذي قال فيه النبي (ﷺ) لو كان نبي من بعدي لكان عمر، الفاروق الذي كان له خطان أسودان تحت عينيه من شدة البكاء، يقف أيام خلافته يتفقد وفود أهل اليمن الذين جاءوا للحج، ليسألهم عن رجل اسمه أويس القرني!

فجمع عمر -رضي الله عنه- الحجيج كلهم بعد انتهاء مناسك الحج، وسألهم أن يجلسوا إلا أهل اليمن، فجلس الكل عدا أهل اليمن، فسأل أهل اليمن أن يجلسوا إلا قبيلة مُراد (التي ينتسب إليها أويس القرني)، ثم طلب من قبيلة مُراد أن يجلسوا إلا أبناء قرن (عائلة أويس القرني)، فجلس الكل وتبقى شيخ عجوز واقف وحده، فذهب إليه أمير المؤمنين وسأله: أفيكم أويس بن عامر القرني؟

فضحك الشيخ وقال: ألهذا جمعنا أمير المؤمنين! وما شأن خليفة رسول الله بأويس؟ فإنا تركناه خلفنا بعرفة رث الثياب قليل المتاع يرعى إبلًا لنا.

فقام عمر -رضي الله عنه- إلى عرفة فوجد رجلاً يُصلي وحوله إبل ترعى، فانتظره حتى انتهى من صلاته ثم سلم عليه وسأله: أنت أويس؟

فقال الرجل نعم، فقال عمر: استغفر لي يا أويس، فقال له أويس: أأستغفر لك وأنت صاحب رسول الله (ﷺ)، أنت أولى أن تستغفر لي، فقال له الفاروق-رضي الله عنه-: لا، فإني سمعت رسول الله (ﷺ) يذكرك ويقول: أويس بن عامر القرني، سيد التابعين، رجل مجهول في الأرض معروف في السماء، ابتلاه الله ببرص فبرأ منه إلا موضع درهم، يأتي إليكم مع وفود أهل اليمن، إن استطعت أن يستغفر لك فافعل، يغفر الله لك، فإنه له أم هو بها بَرّ، ولو أقسم على الله لأبره.

له أم هو بها بَرّ.. فقط!
عمل واحد فقط!
جعل قصته تُنقل وحياً إلى النبي (ﷺ) فيرويها على أصحابه.

عمل واحد فقط..
جعل الفاروق عمر -رضي الله عنه- الذي كان الشيطان يهابه، يذهب إليه ويطلب منه أن يستغفر له.

عاش سيدنا أويس القرني -رضي الله عنه- في زمن النبي (ﷺ) وكان كل رجائه أن يرى الحبيب (ﷺ) لكنه كان من أهل اليمن ومنعه مرض أمه من السفر، كان يستطيع أن يأتي لأمه بجليس ويسافر هو لينال لذة رؤية الحبيب (ﷺ) ويصبح صحابيًّا، لكنه لما رأى تعلق أمه به آثر مُصاحبتها برًّا بها فكافأه الله فذكره على لسان حبيبه.

ففيهما فجاهِد.. كانت نصيحة من الذي أوتي جوامع الكلم (ﷺ) عندما أتى إليه شاب يبايعه على الجهاد، على شرف الموت في سبيل الله، فيسأله النبي (ﷺ): فهل من والديك أحدٌ حَيٌّ؟ فيقول الشاب: نعم، بل كلاهما، فيقول سيدنا (ﷺ): ففيهما فجَاهِدْ.

أعذارنا:

عندما يؤثر سيد التابعين سيدنا أويس القرني -رضي الله عنه- مصاحبة أمه على رؤية أشرف الخلق (ﷺ) فيذكره الله ورسوله مكافأة له، وعندما يأمر المصطفى (ﷺ) شابًّا جاء يبايعه على الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام بأن يعود إلى أبويه ويصاحبهما، ويؤثر مصاحبتهما على الجهاد في سبيل الله.. فما عُذرنا نحن في الانشغال عن والدينا؟!

هل هناك ما هو أعظم من رؤية حبيب القلوب (ﷺ) أو من الجهاد في سبيل الله؟ ذلك الأمر الذي يشغلك عن والديك، هل حقًّا يستحق أن تفقد حسنة برهما التي يتجلي أثرها في الدنيا قبل الآخرة، هل يستحق أن يُغلق أمامك بابًا من أبواب الجنة أهداه الله لك؟

أيُعقل أن نسعى إلى رزقٍ أو عملٍ أو إقامة بيت ونترك وراءنا بركة هذا كله (بر الوالدين)، إلى أين نحن ذاهبون؟ ما يفيد أن نجمع من المال الكثير وقد هجرنا بركته، فإذا هو مثار مرض وخوف، وما يفيد أن نُقيم عائلة لنا وبيتاً ثم نشتكي فقر المودة ناسين أن المودة في بيتٍ آخر تشتاق لنا!

يا من تريد رزقاً وتوفيقاً وسعادة، لا تبحث هنا وهناك، فأعتاب الجنة قريبة منك، الزمها تجدالخير كله.

أما آن لنا أن نُرتب أولولياتنا كما رتبها الله لنا «أن اشكر لي ولوالديك» فنضع أمر الوالدين بعد أمر الله مباشرة لا سابقًا لهما، ونشكر تلك النعمة بعدم الانشغال عنها..

وإياك أن يخدعك الشيطان فتُحدثك نفسك أن الأمور على ما يُرام، وأن الوالدين يقدران انشغالك وأنك تودهما وتتابع أمرهما بين الحين والآخر فتظن أنك من الأبرار، لا.. ربما لم يطلبوا منك شيئاً عزاً، وربما صوروا لك أن الامور جميلة حياءً، فلا تضطرهما أن يطلبوا أو يستحوا بل كن لهم كالخادم لسيده.

الخادم يعرف حاجات سيده فيلبيها دون طلب، وإن لم تك تعرف أدق تفاصيل يوم والديك وحاجتهما فقد فاتك البر، اقض لهما ما لم يطلباه منك، وقف على ما يحبون واصرف عنهم ما يكرهون..

الخادم يُحدث سيده واقفاً، فلا تُحدثهما إلا واقفاً ولا تجلس قبل أن يجلسا أو يأذنا لك أن تجلس، فمن خفض لهما رفعه الله..

الخادم لا يعلو صوته صوت سيده، فاخفض صوتك، وإياك وجدالهما ولو كان لحُجتك ألف دليل، فكل أمرهما مُطاع مادام دون الشرك والإثم.

فهكذا الأبرار..

الأبرار:

كان حجر بن الأدبر يلمس فراش أمه بيده ويتقلب بظهره عليه ليتأكد من لينه وراحته قبل أن يضجعها عليه..

قال محمد بن المنكدر: بات أخي عمر يصلي وبت أغمز رِجل أمي (يدلكها) فكانت ليلتي أحب إليّ من ليلته..

وطلبت أم مسعر ماء، فذهب ليأتي به، ولما رجع وجدها قد نامت، فبات بالماء عند رأسها حتى أصبحت، لم يوقظها ولم يذهب..

وأما الإمام ابن عساكر، العلامة الكبير محدث الشام، فقد سُئل عن سبب تأخر حضوره إلى بلاد أصبهان للتدريس فقال: لم تأذن لي أمي.

وروي عن حيوة بن شُريح، وهو أحد أئمة المسلمين والعلماء المشهورين، أنه بينما كان يجلس في حلقته يُعلم الناس وكان بيته بجانب الحلقة وكان يأتيه آلاف الطلاب ليسمعوا عنه، فتناديه أمه وهو بين طلابه: قم يا حيوة فاعلف الدجاج. فيقوم ويترك الدرس!

جاء عن أبي حنيفة رحمه الله أن أمه كانت تأمره أن يذهب بها إلى حلقة عمر بن ذر حتى تسأله عما أشكل عليها، مع أن ابنها فقيه زمانه، وكان عمر بن ذر نفسه يسأل أبا حنيفة بعض المسائل، ومع ذلك قال أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة رأيت أبا حنيفة يحمل أمه إلى مجلس عمر بن ذر كراهية أن يرد على أمه أمرها.

وعبد الله بن عون (عالم حديث) نادته أمه فأجابها، ثم شعر أن صوته علا صوتها فذهب وأعتق رقبتين..

قال رجل لعمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: إن لي أمًّا بلغ منها الكِبَر أنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري مطية لها، فهل أديت حقها، فقال عمر: لا لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنى بقاءك وأنت تصنعه تتمنى فراقها.

وأعرف رجل أعمال يمتلك عدة شركات ويعمل معه ما يزيد على ألف موظف، دائماً ما يصطحب أمه معه في اجتماعاته، وعندما سألته عن السبب قال لي إن أمه أمية وقد ضحت وجاهدت حتى يتعلم هو، فكان الفضل لها بعد الله لما حققه من نجاح، فأرادها أن تلمس ذلك النجاح فجعلها شريكة في كل أعماله يستشيرها ويأخذ برأيها رغم بساطتها فنال بركتها فما خسرت له شركة منذ ذلك الحين.

أفظٌّ أباك؟

بينما كان يسرد لي تعثرات حياته التي لم تنتهِ، تطرق للحديث عن أبيه، فأنصتُّ متوجساً، فقد كان يريد حلًّا لمشكلاته رغم أنني أخبرته بكل الحلول التي أعرفها ولمست نتائجها لكنه ادعى بالفعل أنه جربها ولم يتغير شيء، حتى جاء الحديث عن أبيه الذي فسر كل شيء!

سمعت منه كلامًا تفوح منه رائحة الغضب وآخر تفوح منه رائحة الكُره، لو اقتحم سامع حديثنا لظن أنه يتحدث عن مجرمٍ أو عدو لا عن أب، لم أقاطعه فأخذ يعرض مآساته مع أبيه وبالرغم أنني كنت أومئ برأسي غير ناقدٍ لما يقول، إلا أنه كان يقطع كلامه بنفسه طالباً مني توكيدًا ما على حُجته، فكنت أكتفي بالإيماء حتى يأتي بكل ما لديه.

كان ينتظر أن أستنكر قسوته مع أبيه الفظ، وكان يبدو أنه متجهز لذلك الاستنكار وقد أعد حُججه بإتقان وكأنه خاض ذلك الحديث مراراً من قبل وانتصر لنفسه فيه، حتى جاءت إجابتي التي أربكته وأفسدت منطقه!

أنت على حق!!

فأبوك فظ ويصعب التعايش معه، وربما يزداد قساوة، هذا أمره، لكنك نسيت أن للوالدين عبادة خاصة أمرنا الله بها، عبادة الإحسان، فيها لا يوجد مجال للمنطق ولا المساواة، فقط الإحسان، أن تُحسن حتى لو أسفُّوك التراب، أن تُحسن ولو وضعوا الطين على رأسك..

أبوك الفظ القاسي هذا هو بابك للجنة، أهداك الله مفتاحه وما عليك إلا أن تصبر وتُحسن فيُفتح لك، وده وكأن الجنة فوق رأسه، لأنها كذلك، وإن لم تفعل فلا نتعجب قلة البركة وفقر التوفيق..

حتى المُجرم يوم القيامة، الذي ربما كان عاقًّا في الدنيا، ود لو يفتدي نفسه من العذاب بكل أهل الأرض وقدم عليهم بنيه وزوجته وأخيه، لكنه خشي في ذلك الموقف المهيب الشديد أن يُقدم والديه فداء له، نعم ربما يفر منهم لشدة الموقف لكنه لن يقدمهم فداء له، فهذا سيزيد من غضب الجليل عليه، الجليل الذي قرن العبادة له بالإحسان إليهم.

«يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه. وصاحبته وأخيه.
وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه»

ها أنت قد بلغت من العمر ما بلغت

ومازلت ترسب في أول اختبار

بل الوحيد الذي وُضع لك

وتُصِر أن تُكرر نفس الإجابة

رغم أنك مُليتها قبل الاختبار

«وبالوالدين إحسانًا»

وتتعجب لماذا كل مرة النتيجة نفسها

ببساطة لأن الإجابة نفسها!

فإنه لا يجتمع بر مع شقاء!!

(١٠)

أتُريد فراغًا؟

بينما كنت أشُاهد لقاء لأحد رجال الأعمال الذي بلغت ثروته أربعة مليارات دولار، وكان اللقاء حول آخر استثماراته التي جلبت له الكثير من المشكلات والخسائر، سأله المُحاور عن سبب الإقدام على هذا الاستثمار من البداية رغم عدم دراسته بشيء من الإتقان.. فكان الرد:

قد كنت فارغًا!!

كان يملك هذا الرجل واحدة من أكبر شركات الاتصالات المحلية وعرضت عليه شركة أجنبية شراء شركته بمبلغ ضخم فوافق وتم البيع، فوجد نفسه يملك المليارات ولديه كل ما يتمناه، لكنه كان فارغًا!!

اشتاق لذلك الانشغال والتحديات التي كان يمارسها أثناء العمل في شركته، وعندما طال هذا الفراغ، أقبل على أول فرصة استثمار سنحت له بدون دراسة كافية، فقط لسد هذا الفراغ.

من إحدى تعليقاته: أنا لن أرتدي بدلتين في وقت واحد ولن أركب سيارتين في نفس الوقت ولن أقوم برحلتين مرة واحدة، المال مهم لكن الفراغ قاتل.

ربما نتوق نفسك لبعض من ذلك الفراغ الآن حيث أنهكك العمل، وربما تسعى إليه بكل الطرق ظنًّا منك أن الراحة كامنة فيه لأنك لم تجربه من قبل، وهذا من رحمة الله، فلتعلم أن الأطباء يستخدمون العمل لعلاج الأمراض الأشد فتكاً التي ربما يسببها الفراغ..

العلاج بالعمل (Occupational Therapy) هو تخصص طبي يستخدم العمل لعلاج الأمراض الجسدية والنفسية، حيث تتغير الكيمياء الحيوية للجسد عندما يستغرق الإنسان في العمل، وقد استخدم الأطباء النفسيون الملحقون بجيوش الحرب هذا العلاج عندما كان يأتي إليهم الجنود الذين عصفت الحرب بأعصابهم، فقد كانوا يشغلون هؤلاء الجنود المصابين بالانهيار العصبي بالعمل حتى الإنهاك، هذا الانشغال لم يسمح لهم حتى بالتفكير فيما مر بهم من تجارب..

كونك منشغلاً تذهب صباحاً إلى عملك أيًّا كان هذا العمل، تلك نعمة عظيمة من الله الغني تستحق الشكر، نعمة فريدة بذاتها، سواء أحببت عملك أم لم تحبه، لا تجعل تحديات العمل تُنسيك شكر نعمة العمل، فهناك على الأقل شخص ما، عملك هذا له حُلم وأجرك له أمنية.

حبك لعملك من عدمه هو توجه نفسي، ليس له علاقة بطبيعة العمل الذي تمارسه أو الأجر الذي تحصل عليه، في البداية يكون العمل بالنسبة لك مصدر بهجة وسعادة وبمرور الوقت يدخل تدريجيًّا في قائمة الروتينيات حتى يتصدرها فيتحول إلى مصدر شكوى وسخط..

نفس الرحلة يصطحبك فيها إبليس كالعادة ويهمس لك أن تشتكي الآن ويَعِدك بأن تتوقف الشكوى عندما تحصل على عمل أفضل، ويأتي العمل الأفضل ببهجته في البداية حتى تختفي تلك البهجة تدريجيًّا ويصبح كسابقه مصدر سخط وأحيانًا سخرية.

بحث خبراء ريادة الأعمال والقيادة عن آلية تجعل الأشخاص يحبون أعمالهم بعد أن بينت لهم الإحصائيات أن ٨٣% من العاملين على هذا الكوكب لا يحبون وظيفتهم أيًّا كانت الرواتب التي يحصلون عليها، فتوصلوا إلى مبدأ بسيط جدّا أخبرنا به القيادي الأعظم في تاريخ البشرية الذي تعلمت منه في مجال ريادة الأعمال أكثر مما تعلمت من جاك ويلش **Jack Welsh** الملقب بمدير القرن، رغم أن فارق السنين بيننا تعدى الألف.

نعم.. قالها مُعلمنا–عليه الصلاة والسلام-:

(إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقنه)

وهو نفس المبدأ الذي توصل إليه خبراء القيادة وريادة الأعمال؛ حيث وجدوا أنه كلما أتقن الشخص عمله كلما أحبه..

فأنت عندما تتقن عملك أيًّا كان، تشعر بأهميتك، ترضى عن نفسك، تُقدر ذاتك، فيدفعك هذا إلى حب ذلك العمل الذي أتقنته، أتذكر هنا جدتي -رحمها الله- كيف كانت تقضي معظم أوقاتها وحيدة لكنها لم تمل الوحدة أبداً، والسر أنها كانت تؤدي كل أعمال البيت بدرجة عالية من الإتقان، كلما أتقنت كلما زاد عندها الإحساس بالإنجاز، بالرضا الذاتي والسعادة، حتى إن كل من كان يزورها كان يُثني على ترتيبها لبيتها.

ولا فرق هنا بين جدتي التي تُدير بيتها المتواضع وبين هذا الذي يدير أكبر شركة في الكوكب، فالمبدأ واحد، أتقن ما تعمل حتى تحب ما تعمل..

أجير الله:

وما الدافع أن تُتقن عملك إن كانوا لا يقدرونه؟

لأنك أجير الله. هو من أهداك ذلك العمل وهو من يأجرك عليه، ألا تستحي أن تنتظر تقدير العبيد ومالكهم ينظر إليك، ما يضرك قلة تقديرهم مادام الوهاب يعلم ما تفعل، فإن رآك أحسنت، أحسن إليك وأعطاك على قدره هو لا على قدر من تعمل لهم.

أعلنها الآن في قرارة نفسك أنك أجير الله، تعمل له، تُحسن من أجله، لا تنتظر ترقية شركة ولا ثناء مُدير، ومادام الله مُطلعًا عليك، سيجبرك ويرفعك، ربما تعمل سنة بمجهود يفوق الأجر الذي تحصل عليه، مُتقناً مُحسناً شاكراً راضياً، فيكرمك الكريم بعمل يكون أجره أضعاف المجهود الذي تبذله فيه.

لأنه القائل: «إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا»

هو يراك.. يراك وأنت تبذل كل طاقتك في بيئة عمل لا تُقدرك منتظراً منه الأجر فقط، فما ظنك بالكريم الشكور؟

لأجله.. اصنع المعروف في أهله وفي غير أهله، فإن أصبت أهله فهو لأهله، وإن لم تُصب أهله فكن أنت أهله..

كن أنت أهله..
اجعل الإتقان والإحسان والمعروف جزءًا من خُلقك، مبدأ لا يتغير بتغير البيئة التي تعمل فيها، مؤمناً بأن هناك رقيباً يدبر لك على قدر إحسانك.

تحديات:

أعلم أن ضغوطات العمل أحيانًا لا تُطاق، وسلوك العملاء غير لائق، وزملاء العمل يكيدون لك المكائِد، فلتعلم أن تلك ابتلاءات ساقها الله الحكيم لك لتتقرب منه وتلجأ إليه، ولتتعلم حكمة لم تكن لتعملها دونها، فافهم ولا تجعلها سببًا يزيدك سخطاً، بل اجعلها سببًا يزيدك قُرباً..

إلى الآن وأنا ممتن صدقاً لزميل عمل في أول شركة عملت بها بعد تخرجي؛ حيث رفض هذا الزميل بطرق غير مباشرة أن يُعلمني حرفاً، حتى إنه رفض تسليم الأعمال لي عند مغادرته الشركة واحتفظ بها..

فكان يتصل بي العملاء يسألونني عن أمور لا أعلم عنها شيئاً وكان هذا يثير غضب مدير الشركة ويسأل لماذا لم أتسلم الأعمال من المهندس السابق، دفعني هذا الابتلاء من الله الكريم أن أدرس تاريخ تعاملات معظم عملائنا وقتها، فكنت أقضي وقتًا أطول في العمل، فاطلعت على أمور حسابية وقانونية وفهمت التسويق والبيع رغم أنني مهندس معني فقط بالأمور الفنية..

هذا الابتلاء اللطيف الذي يبدو سبباً لجعل ضغوطات العمل لا تُطاق، فالكل كان يراني مُقصراً لأنني لم أتسلم الأعمال من المهندس السابق، كان في الحقيقة سبباً أن أكتسب خبرات عشر سنوات في عدة أشهر، وقد ساقه الله لي لأتمكن من فهم أمور ليست في مجال تخصصي، وساعدني هذا عندما شرعت في تأسيس عملي الخاص بعدها لتتغير حياتي المهنية كلها والفضل كله لله.. فافهم عن الله وأعط كل نعمة حقها.

ذكر جيم كولينز في كتابه أُسِّست لتبقى **(Built To Last- Jim Collins)**، أن أحد أهم الأسباب وراء استمرار بعض الشركات على القمة لمدة تزيد على القرن هو قدرتها على مواجهة التحديات المختلفة أيًّا كانت، فثقافة تلك الشركات كانت تهدف للتعلم من التحديات ومن ثم التطوير حتى أوصلتها التحديات إلى مكانة بعيدة جدًّا عن منافسيها.

التحديات مدرسة، وكل تحدٍّ تواجهه يرتفع بك درجة، انظر في سير الأنبياء والمرسلين، أحب خلق الله إليه، لتعلم أن الله يسوق لك تلك التحديات حتى ترتقي وتتعلم، فاعقل الدرس وتعلم منه حتى لا تُضطر لأخذه مراراً.

الخطأ والمسئولية:

أخطاء الآخرين حولنا لا تُعد ولا تُحصى، سواء في العمل أو في الحياة العامة، ومن السهل جدًّا وجود مبررات عديدة ومنطقية للوم الآخرين والشكوى منهم هنا وهناك، لكن ماذا بعد الشكوى، ماذا بعد؟

هذا الذي يشتكي كل يوم بلا ملل من زملاء العمل ويلوم مدير الشركة، ماذا بعد؟

ذلك الذي مازال يلوم والديه لأكثر من عشرين عاماً لأنهم لم يحسنوا تعليمه أو لم يمهدا له حياة مُرفهة، ماذا بعد؟

تلك التي مازالت تشتكي زوجها السابق وتلومه على الحياة التي تعيشها الآن، ماذا بعد؟

تلك أخطاؤهم (فرضاً)..
لكن ماذا عن مسئوليتنا نحن الآن؟
هل سنظل نشتكي منهم ما حيينا؟

ستشعر بالتغيير في سلوكك وعملك وحياتك في اللحظة التي تقرر فيها أنك مسئول عن حياتك مسئولية كاملة بمشيئة من الله، وقتها ستتوقف عن لوم الآخرين ولوم الظروف، ستتوقف عن الشكوى..

ستنتقل من طور الشكوى الذي لا ينتهي إلى طور التغيير، ستبدأ في إصلاح حياتك بترك ما يسوءك إلى ما لا يسوءك، فكم من علاقات وأمور مازالت تسبب لك الألم النفسي ومازلت تشتكي منها وتلوم أطرافها لأنك لم تعلن بعد مسئوليتك عن وجودها في حياتك..

قبل أن تخضع لهوى نفسك لتشتكي أو تلوم شخصاً ما أو أمراً ما، اسأل نفسك أولاً: ما هي مسئوليتك تجاه هذا الأمر؟

لا يهم تماماً من الذي أخطأ ووضع بعض الزجاج المكسور أمام بيتك، لكن بما أنه أمام بيتك الآن وربما سيسبب الأذى لك ولأهل بيتك، فأنت أصبحت مسئولاً الآن عن إزالته، وبدلاً من أن تستهلك طاقتك في الغضب والتذمر والانتقام، ببساطة قم بإزالته وسينتهي الأمر.

كلما حاورني أحد وبدأ الحديث يتجه للشكوى أو لوم شخص ما عن أمر ما، أستأذنه بلطف أن نُغير مسار الحديث لنفكر في مسئوليته تجاه ذلك الأمر وما الذي يمكن فعله حتى نزيل عواقب ذلك الأمر السلبية..

فنحن البشر نستهوي الشكوى ولكن لا نستهوي إصلاح أو تغيير سبب الشكوى، لا تُجالس أناساً يسببون لك الألم النفسي ثم تشتكي منهم، اهجرهم هجراً جميلاً، وابذل طاقتك في شيء يفيدك..

وإن كنت غير سعيد بعملك الحالي ووصل بك الحال أنك لا تُطيقه، أيضاً لا تضيع وقتك في الشكوى هنا وهناك، إفعل شيئاً بدلاً من تلك الساعات التي تستهلكها لسرد مشكلات العمل..

فلتكن لك خطة واضحة لتغيير عملك، خطة بها ماهية الشركات التي تُحب أن تعمل بها، ماهية المؤهلات التي تحتاجها، أو الخطوات التي تحتاجها لتأسيس عملك الخاص، وأن تبدأ في تنفيذ تلك الخطوات أو كسب تلك المؤهلات بهدوء مستعيناً بالله الفتاح، فأن تبدأ طريق التغيير بهدوء وبطء خير لك من شكوى لا تنتهي.

لا تكن أنت بضاعة الشيطان

لا تسمح له بالهمس شاغلاً إياك عن الشكر

فعملك هدية الله الكريم لك

فأحسن شكره وحمده

فإن لم تعجبك الهدية

فاسأل مُهْدِيَها بأدبٍ أن يبدلك خيرًا منها

واحفظ لسانك حتى لا تُتعبك الشكوى وتُتعبها

ولا تجعل دوام حضور النِعم أشبه بغيابها

لا تكن كنودًا☺

(١١)

ليتني

يؤتى بك يوم القيامة على رءوس الخلائق، في أحلك موضع ستمر به منذ أن وُلدت، موضع الحساب، حينها ستفر من كل أحبابك، بل تتمنى لو تُقدمهم قُرباناً لتنجو أنت، فيُنشر لك تسعة وتسعون سجلًّا، كل سجل مد البصر، وترى سيئاتك ترجح وترجح والملائكة تزيد على كفة السيئات، فيسوَد وجهك، وتظن أنك هالك لا محالة!!

فيقول لك الودود: أتنكر من هذا شيئاً، فتقول لا يا رب.
فيقول الكريم: هل ظلمك أحد من حفظتي، فتقول لا يارب.
فيقول الجليل: هل لك حسنة لم نكتبها لك، فتقول لا يارب وأنت أعلم.

فيقول الجبار: بلى.. إن لك عندنا اليوم حسنة!!!

فيُخرَج لك بطاقة صغيرة يسيرة، فتنظر إلى سجلاتك الطوال المظلمة، وتقول: يا رب، وما تُغني هذه البطاقة عن تلك السجلات الثقيلة!!

فيُقال: إنك لا تُظلم اليوم شيئاً، وتؤمر أن تضعها في سجل حسناتك.
فترجح حسناتك وتطيش سجلات السيئات كأنها ترتعد حتى تتبخر!!

فتتعجب وتأخذ تلك البطاقة لتنظر فيها، أي عملٍ هذا الذي طاح بالسجلات الطوال المُظلمة، فتعرف أنها حسنة لم تعملها أنت بل أُهديت إليك يوم وُلدت حيث كُتب على البطاقة:

لا إله إلا الله

تلك الهدية التي تأخذ بيديك في هذا الموضع الحالك الشديد الذي يقول فيه الأنبياء أنفسهم أحباب الله "نفسي نفسي"، يستنكرها أحدنا علناً أو مُحدثاً نفسه هامساً: ليتني لم أُولد هنا!!

ليتني لم أُولد هنا، ليتني وُلدت في دولة عظمى قوية أو دولة أوروبية راقية، ليتني كنت أمريكيًّا أو إنجليزيًّا أو أوروبيًّا، نقولها ولا نُفكر في تلك الهدية المرتبطة ببلد ولادتنا، هدية الإسلام ونعمة الإيمان.

يقولها أحدنا مستهزئًا ضاحكاً وهو يضع صورة طفل حديث الولادة تبدو على وجهه علامات العبوس كاتباً "عندما تعلم أنك وُلدت في............." ويذكر اسم دولة إسلامية عريقة، أليس هذا إنكارًا لنعمة الله الكريم؟!

الأيام دُوَل.. فالبلد الذي يبدو مزدهراً راقيًا آمنًا اليوم، كان في ظلام وحروب ومجاعات قبل ذلك، وبلدك الذي ربما يمر بظروف قاسية اليوم كان يعتلي قمة الحضارات في وقت مضى، ليس شرطاً أن تولد في بلد مزدهر حتى تحيا الحياة الطيبة، للحياة الطيبة شروط أخرى.

الصومال التي تُعاني اليوم من مجاعات كانت أغنى دولة في إفريقيا قبل مائة عام، وكانوا هم الذين يتصدقون على أهل الجزيرة العربية، وهناك وثيقة زكاة تُثبت ذلك يعود تاريخها لأكثر من مائة وعشرين سنة.

الهند التي يُهاجِر أغلب سُكانها الآن للحصول على الرزق، والتي تعتبر البلد رقم واحد عالميًّا من حيث هجرة مواطنيها، كانت هي التي يُهاجَر إليها من كل بقاع الأرض للحصول على الرزق من خيراتها.

دول أوروبا المزدهرة حاليًّا والمتقدمة علمياًّ مرت بقرابة عشرة قرون من الزمان سُميت بالقرون المُظلمة؛ حيث كان يُقتل فيها العلماء بل يُحرقون أحياءً وهي نفس الدول التي اشتعلت بينها الحروب العالمية الأولى والثانية وكان عدد ضحايا تلك الحروب تقريباً مائة مليون نسمة.

دول الخليج التي تتمتع بثروة بترولية هائلة اليوم، كانت تعاني ظروف المعيشة الصعبة والقاسية قبل ذلك، ولكن كافأهم الله على صبرهم وامتنانهم فاكتشفوا النفط حتى تبدلت ظروف معيشتهم جذريًّا.

إذن فيم السخط!!
وهي أيام يداولها الله بين الناس
الثابت الوحيد هو الله الصمد
فإذا أردت الحياة الطيبة فاسأله هو قبل أن تتسخط على مشيئته وتُنكر نعمته وأنت لا تدري بقولك "ليتني".

تالله لو أن ملكاً من التاريخ قد بُعث ورأى حالنا لظن أنه صعلوك، ننام على فراش من القطن، ماء يجري في صنابير، بارد للشرب، ساخن للغُسل، مبرد تلقائي، مركبات سريعة، وسفر من بلد لبلد في سويعات معدودة، نرى العالم بضغطة زر، نتصل بمن نريد في لحظات، نعيش عيشة لم يعشها الملوك بل لم يحلموا بها ومع ذلك نتبنى الشقاء!!

ما عند الله لا يؤتى إلا بطاعته، الأرض كلها ملك لله الغني، والسخط معصية لله تعالى ولن يحركك السخط خطوة واحدة للأمام، أظهر الامتنان إخلاصاً من قلبك لحكمة الله في بلد ولادتك ووقت ميلادك حتى وإن كانت ظروف بلدك قاسية، فلربما وُلدت في بلد مزدهر فعانيت ظروفاً لا طاقة لك بها..

لي صديق نرويجي، أخبرني ذات يوم أنه استيقظ على خبر مقتل جاره وكان القتل لغرض السرقة، النرويج التي تعتبر ثاني أعلى بلد من حيث دخل الفرد فيها والتي تتمتع بمستوى معيشي راقٍ جدًّا وهي من ضمن أأمن عشرة بلدان في العالم، تُنفذ فيها جريمة قتل لغرض السرقة!!

أصاب صديقي الهلع والقلق لأسابيع ليست بالقليلة، فالجريمة حدثت على بعد أمتار من شقته، وظن أنه كان هو المُستهدف من السرقة لأنه يضع بعض الممتلكات النفيسة في خزانة شقته، من يُصدق أن تعيش في النرويج ولا تشعر بالأمان.. لكن أينما كنت لا أمان إلا مع الله.

قال أحد الصالحين: لو انطبقت السماء على الأرض لجعل الله للمتقين فتحات يخرجون منها، أليس هو القائل سبحانه:

«ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب»

بالتقوى يجعل الله لك مخرجاً فيقيمك في أنفع البلاد وأصلحها لك، بالتقوى تُرزق من حيث لا تحتسب فتحيا الحياة الطيبة.

وهذا رجل أعمال تخطت ثروته مئات الملايين ويعيش في واحدة من أرقى الدول على الكوكب وقد ساهم بشكل مباشر في ازدهار اقتصاد تلك الدولة لعشرات السنين من خلال أعماله، وُجهت له قضية فساد مُنع من السفر على إثرها وأحيل للإقامة الجبرية لشهور حتى اضطُر للهروب في صندوق خشبي!! هرب إلى بلد ولادته التي تُعاني ظروفًا اقتصادية صعبة وبعض النزاعات الطائفية، فهي أحب إليه من سجنٍ في بلد مزدهر.

وآخر جاءته منحة دراسية كان ينتظرها منذ سنين من إحدى جامعات الصين، أعاد ترتيب أموره كلها ليستقبل حلمه الذي ظن أن الحياة الطيبة تأتي معه، وجهز كل شيء ولكنه لم يحصل على الموافقة الأمنية للسفر ففاتته المنحة، لعن بلده وأظلمت الدُنيا في وجهه حتى كره العيش..

بعد شهرين تأتي الأخبار بأن المقاطعة التي كان من المُفترض أن يسافر إليها تفشى فيها فيروس كورونا الذي فتك بآلاف البشر حتى اضطرت الحكومة الصينية أن تعزل سكان تلك المقاطعة بأكملها كمحاولة للسيطرة على الفيروس القاتل.. فسجد صاحبنا لله شكراً.

فكيف لنا أن يكون لنا رب عنده مفاتح الغيب ويعلم ما في البر والبحر ولا نتكئ عليه ولا نسلم له أمرنا ولا نرضى بقضائه، اسع لأن تعيش في أأمن بلد على الكوكب، فأنت في مُلك الله المهيمن، لكن ليملأ قلبك اليقين بأن الأمان والطمأنينة والرزق من عند الله وحده.

«هو الَّذي جعل لكم الأرض ذَلُولًا فَامْشُوا في مَنَاكِبِهَا وَكُلوا مِن رِزْقِهِ. وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»

لم يقل الله المهيمن (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقها)، بل قال الحكيم (وكلوا من رزقه) لأن أغنى بلد بالعالم لا يملك رزقه، وأأمن بلد بالعالم لا يملك أمنه، بل يملكه القاهر فوق عباده الذي له كل شيء ويعلم ما سكن في الليل والنهار.

جنة صدرك:

الحياة الطيبة ليست مرتبطة بمكان ما أو زمن ما، لما أُلقي شيخ الإسلام ابن تيمية في سجنِ القلعة بدمشق قال: ما يصنع أعدائي بي؟ إن جنَّتي في صَدري، أين رُحت: فجَنَّتي مَعي ولا تُفارِقُني، إن حبسي خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة.

غيّر شيخ الإسلام نظرته للأمور، فتغيرت الأمور التي ينظر إليها، فأصبح الحبس خلوة والنفي سياحة والقتل شهادة.

أنا لا أطلب منك أن تعيش في سجن، لكن أطلب منك أن تصنع جنة في صدرك لا تُفارقك أينما ذهبت، أيًّا كان الضجيج والصخب حولك، فجنة صدرك ستعزلك عن أي صخب وتضفي هدوءًا واطمئنانًا على حياتك لم تتذوقه قط..

تلك الجنة تُصنع بالامتنان، أن ترى الله اللطيف في كل شيء يحدث لك وكل شيء تفعله مُحدثاً نفسك بأنه هو الحكيم يفعل ما يشاء فله الحمد كله وله الفضل والثناء الحسن..

لا تنتظر أحداثًا جذرية

اصنع جنتك بالرضا عن الله تعالى مع بداية كل يوم تستقبله

سلم أمرك للحكيم ولا تشاركه الحكم

ابذل وُسْعَ طاقتك فيما أقامك فيه

فعسى أن يكون مقامك هذا مفتاح خير

فهو يعلم ونحن لا نعلم

ابتسم في سجودك حامداً تلك العطية.. وتذكر أنه:

أعطاك ما لم يعط إبراهيم -عليه السلام- في أبيه

ونوحًا-عليه السلام- في ابنه

ومحمد -صلى الله عليه وسلم- في عمه

اصطفى لك الدين

(١٢)

صاحب الملائكة

بينما تجلس مع أصدقائك بمجلس هنيء سعيد، تتبادل أطراف الحديث وتستعيد الذكريات الجميلة وقد ملأت البشاشة وجهك والفرحة صدرك، الأجواء كلها رائعة، فكل من في المجلس تحبهم ويحبونك والطمأنينة تملأ المكان والراحة تغمره.

تضع يدك على جيبك فلا تحسس هاتفك وقد اعتدت وجوده فيه طالما لا تستخدمه، تتسارع دقات قلبك محدثاً نفسك، أين الهاتف؟!

تأتيك خاطرة بأن آخر مكان استخدمت فيه هاتفك كان سيارة الأجرة التي أقلتك إلى مجلس الأصدقاء.. تتبعها خاطرة أخرى بأنك ربما نسيته فيها!!

يسيطر القلق عليك، يخيم الضيق على صدرك، كل هذا يحدث وأنت مازلت في مجلس الأصدقاء الدافئ السعيد وهم مازالوا يتبادلون الذكريات الجميلة التي ملأت صدرك بالفرح ورسمت على وجهك البشاشة منذ لحظات!!

تتحسس جيوبك كلها بحثاً عن الهاتف لكن لا جدوى
يتبدل حالك من الانشراح إلى الغم
شيء من التوتر يرتسم على وجهك رغماً عنك
تحاول أن تبدو طبيعياً حتى لا تُفسد ذلك المجلس الجميل
تتظاهر بالوقوف بحثاً عن شيء ما

فتلقاه عينك هناك على منضدة صغيرة بجانب الباب
فتتنهد طارداً ذلك القلق
وتهدأ دقات قلبك وتعود البشاشة لوجهك
فتأخذه لتضعه في جيبك وتُكمل حديثك مع الأصدقاء متحمساً
وكأن شيئاً لم يكن!!

ربما حدث معك هذا الحدث أو ما يشابهه مرة في حياتك، خليط من المشاعر المتناقضة يغمرك في لحظات معدودة، سعادة ثم حزن، بشاشة يليها عبوس، انشراح بعده ضيق..

لم تُغير مجلسك ومازلت بجانب أصدقائك المقربين، فقط خاطرة تسللت إلى ذهنك بدلت حالك، بل وأثرت على كيمياء جسدك فتسارعت دقات قلبك وضاق صدرك.. فقط خاطرة!!

استجاب عقلك لها دون أن يسأل حتى أهي خاطرة صادقة أم كاذبة، تعامل جسدك معها كأنها حقيقة رغم أنه لا وجود لها، وبدأ المخ في إرسال اشارات الاستغاثة وكأن وحشًا يركض وراءك، فانتشر الأدرينالين وزاد تدفق الدم وتأهبت جميع أجهزة الجسم لمواجهة ذلك الوحش.. لكنه غير موجود!!

هي فقط خاطرة صورت لك كذباً أن هناك أمراً ما، والحقيقة أنه ليس هناك شيء، لكن للأسف أصبح عليك أن تُبدد تلك الطاقة التي اختزنها جسدك ظنًّا منه أنك تواجه خطراً ما، وإن لم تفعل ربما أصابتك أمراض القلب والضغط عاجلاً أو آجلاً..

تلك الخواطر وما شابهها هي ما تجعلك تتذمر وتشتكي لسبب أو دون سبب، هي التي تصور لك الأسوأ دائماً، تُضيّق نظرتك للأمور فلا ترى نعمة ولا تلاحظ فضلًا، لكن هناك طريقة تجعلك لا تستجلب تلك الخواطر أصلاً أو تساعدك في صدها بمجرد تسللها إليك قبل أن يستجيب لها عقلك وجسدك..

أن تُصاحب الملائكة!! نعم، أنت يمكنك أن تكون صديقاً للملائكة مُصاحباً لهم ☺.

صحبة الملائكة تأتي لك بكل خواطر الخير أيًّا كان ما تمر به، تملأ قلبك اطمئناناً ورضًا، تعينك على فعل الطاعات، تغير نظرتك للأمور..

خواطر الملائكة:

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: في القلب لمتان، لمة من الشيطان ولمة من المَلَك، فأما لمة المَلَك فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله.

إيعاد بالخير.. تجعلك دائم التفاؤل، تنظر للجانب المشرق في كل أمر، لا تسخط ولا تشتكي، إن جاءتك سراء شكرت الله، وإن جاءتك ضراء صبرت حمداً لأنك تعلم أن هناك حكيمًا يدبر أمرك.

ربما تكون مهموماً لحدث ما في حياتك، فتأتيك خاطرة لطيفة رقيقة تجعلك تبتسم رغم همك وربما تسببت في انشراح صدرك، تلك من خواطر الملائكة.

وهناك خاطرة تُلجم غضباً وأخرى تُنجز عملاً..
خاطرة تكظم غيظاً وأخرى ترسم بسمة..
تلك خواطر الملائكة ☺

لا تَخَفْ.. كانت خاطرة وحي لموسى -عليه السلام- حين أوجس في نفسه خيفة عندما ألقى سحرة فرعون حبالهم وعِصِيهم فخُيل إليه أنها تسعى، فجاءته تلك الخاطرة تطمئنه وتثبته:

«قُلنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأعلَى»

خاطرة جعلته يصمد أمام واحد من أشد الطغاة في تاريخ البشرية، وكانت سبباً في تغيير حياة ملايين الأشخاص، فماذا لو أن النبي الكريم موسى-عليه السلام- استسلم لخوفه (حاشا لله)، وكم من أمر كان سيغير حياتك لو جاءتك فيه فقط تلك الخاطرة "لا تَخَف".

وهذا أبو معلق الصحابي الورع، الذي كاد أن يقتله قاطع طريق، فسأله أن يُصلي لله ركعيات قبل موته، فتركه يُصلي، فدعا بدعاء سُمِع له ضجة بين أهل السماء وقعقعة لأبوابها، لأنه كان مُصاحباً لهم، فاستأذن مَلك من الملائكة أن يُغيثه فأغاثه بإذن من الله.

وعرفت الملائكة صوت يونس -عليه السلام- لأنه كان صديقاً لهم، حين سمعت دعاءه وهو في بطن الحوت فقالت: صوت مألوف من مكان غير معروف....... فكيف لك بصحبة الملائكة؟

صُحبة الملائكة:

صلاة الفجر.. فليكن أول خروج لك من بيتك خروجًا لصُحبة الملائكة، وأول عمل تستقبلين به يومكِ، عملًا تحضره الملائكة، فلا تُجالس البشر قبل أن تُجالس الملائكة في صلاة الفجر، الصلاة التي تشهدها الملائكة، فتقترب منك، وتدنو من روحك فتسمو بها، واعلم أن بداية اليوم دفته، فإن كانت البداية مُطمئنة كان يومك مطمئنًّا يملؤه الامتنان.

التسبيح.. عرفت الملائكة صوت يونس -عليه السلام- لأنه كان من المُسبحين، وقد تتبعت التسبيح في القرآن الكريم فوجدته يرفع البلاء، ذلك الذكر خفيف اللسان عظيم الأجر، فلتجعل لك وردًا منه صباحاً لا تتركه ووردًا آخر النهار، يُصلي عليك الله الجليل وملائكته:

«يا أَيها الذين آمَنُوا اذْكُروا اللَّهَ ذِكرًا كثيرًا.
وسبحُوهُ بُكرَةً وأَصِيلًا .
هو الذي يُصَلِّي عليكُم وملائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم من الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وكان بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا.»

التحميد.. اجعل لك ورد حمد كل يوم، وأنا أرى أن الحمد من الأذكار التي تحتاج إلى تدبر، فلا تكتفِ بقول الحمد لله فقط، بل جاهد عقلك أن يُفكر في نعمة من نِعم الله عليك التي لا تُحصى مع كل تحميدة تقولها، ستجد نفسك تحمد الله الغني على نِعم لم تذكرها بحمدٍ منذ ولادتك.

مجلس علم.. استمع لدرس أو خطبة من شيخ تحبه، اجعلها من عاداتك الصباحية قبل أو أثناء الذهاب إلى عملك، فيكون مجلسك مجلس علم، تلتف حولك الملائكة ويحفونك بأجنحتهم فتطمئن نفسك ويرق قلبك، فتُصبح هادئاً لا تغضب ولا تشتكي ولا تتذمر.

قال رَسُول اللّهِ ﷺ:

(إن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون اللّه عز وجل تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا)

الصلاة على النبي.. إن كانت الحقيقة العلمية هي الظاهرة التي تم إثباتها بالتجربة والدليل والملاحظة، فأنا أعتبر "الصلاة على النبي" من الحقائق العلمية التي تكشف الهم وتزيل الغم وتقضي الحاجات بإذن الله لما رأيت من أسرارها مع كل من حافظ عليها، وهي من جالبات صُحبة الملائكة.

قال عنها رسول الله ﷺ عندما سأله صحابي: ما الصلاة عليك يا رسول الله؟ ذلك من العلم المكنون ولولا أنكم سألتموني، ما قلته. فإن الله تعالى وكل بي ملكين، فإذا صلى أحد عليّ، قال الملكان غفر الله لك فتقول الملائكة آمين.

وجاء سيدنا أُبيّ بن كعب -رضي الله عنه- وقال: يا رسول الله! إني أُكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي (أي من ذكري)؟ قال: ما شئت، قال: الربع؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير لك، قال: النصف؟ قال:ما شئت، وإن زدت فهو خير لك، قال: الثلثين؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير لك، قال: يا رسول الله! أجعل صلاتي كلها لك؟ قال: إذًا تُكفى همك، ويُغفر ذنبك.

تُكفى همك ويُغفر ذنبك، ويدعو لك الحبيب ﷺ وعليك من الله السلام، أتُرى كيف سيكون حالك إن دعا لك النبي ﷺ بالسلام ☺؟

الدعاء بظهر الغيب.. من الأمور الجميلة التي تعودت عليها هو أن أدعو لمن لا أعرفهم، فإن رأيت أحد المارة يبدو عليه الهم أو الحزن أو التعب، دعوت له بظهر الغيب ووجدت أن هذا العمل يشرح صدري، ولا عجب فإن الملائكة تُصاحب من يدعو لأخيه بظهر الغيب وتقول له"لك بمثلٍ".

أيضاً إن استطعت أن تدعو لمن أساء إليك، فادع له بظهر الغيب عسى أن يغفر الله له، وستجد أن الله يكافئك بسكينة ممزوجة بالقوة والرُقي.

الصف الأول في الصلاة.. قال عنه النبي ﷺ:

(إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول)

عيادة المريض.. قال عنها الحبيب ﷺ:

(ما من مسلم يعود مسلماً غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي،

وإن عاده عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح،

وكان له خريف في الجنة)

كلها أعمال تجلب لك صُحبة الملائكة..

فاحرص ألا يمر يومك إلا ولك بعض منها..

فتلتف حولك الملائكة فلا يجد شيطانك فُرجة ليوسوس لك..

فتأتيك خواطر الملائكة بدلًا من همزات الشياطين..

فتطمئن نفسك ويهدأ بالك..

فترى فضل الله في كل أمر..

فتنشغل بالحمد عن السخط..

وبالشكر عن الشكوى..

هنيئًا لمن صاحب الملائكة

(١٣)

تمهل

يكفيك أن تمر بحادث طارئ واحد في يومك حتى تجد نفسك قد دخلت في سلسلة من الأحداث الطارئة لا إراديًّا، ربما لا تستفيق منها إلا وأنت على فراشك في نهاية يومك بعد أن أنهك التعب عقلك وجسدك.

تخشى أن يتأخر أبناؤك عن المدرسة، فتحاول أن تسابق كل من سولت له نفسه بتجاوز سيارتك، وما إن يصل الأبناء إلى المدرسة سالمين، تجد نفسك عائداً تقود سيارتك بنفس العجلة دون داعٍ، بل دون وعي.

يطلب أحدهم منك أمراً عاجلاً في العمل، فتلبيه في زمن قياسي غير أنك تجد أن مهمات العمل التالية أخذت نفس حالة الطوارئ دون أن تدري، وحين يعود إليك وعيك وتحاول كبح تلك الحالة من العجلة، يكون قد انتهى يوم عملك.

وهكذا يوم بعد يوم حتى تصبح العجلة هي طريقتنا، نقود بسرعة، نتكلم بسرعة، نأكل بسرعة، نغضب بسرعة.. نصلي بسرعة!

علم مُعلمنا ﷺ ذلك التأثير النفسي للعجلة فنهانا عن الهرولة أثناء الذهاب للصلاة، فإذا سيطرت علينا العجلة قبل الصلاة فستلازمنا فيها رغماً عنا ويضيع الخشوع.. لذلك قالﷺ:

(إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا)

إننا جميعاً على ما يبدو في هذه الأيام نقضي حياتنا في الاندفاع هنا وهناك في سرعة وعجلة، أصبحنا في حركة مستمرة، وأصبحنا نتوقع من كل شيء ومن كل شخص حولنا أن يتحرك بشكل أسرع، نفد صبرنا وأصبح معظمنا يعاني من مرض السرعة..

تلك الحالة الدائمة من الاندفاع تؤثر على مزاجنا فتجعله يتقلب بنفس السرعة التي تسير بها أيامنا، فيمكن لكلمة بسيطة أو موقف عابر أن يشعرنا بالأسى والحزن لأيام، أصبحنا عُرضة للقلق والتوتر لأقل سبب، أصبحنا ضعفاء من الداخل، سريعي الغضب سريعي الشكوى!

وصف الله الحكيم تلك الحالة حين قال «إن الإنسان خُلق هلوعًا»، والهلع هو الخوف المبالغ فيه، خوف بتسرع مبني على رؤية مغلوطة للأمور، وإن كان هناك بعض التأني في حياتنا لما ورد علينا ذلك الهلع، والعجيب أن القرآن أخبرنا أن ذلك الهلع وملحقاته يُصيب الفئة المريضة به في الضراء والسراء، فهم في حالة خوف دائم سواء كانوا في رغدٍ أو ضيق «إذا مسه الشر جزوعًا وإذا مسه الخير منوعًا».

وأول دواء قدمه العليم لنا لمواجهة وباء العجلة الذي أصابنا هو الصلاة، وكأنها مكابح موزعة على اليوم والليلة تُلجم ذلك الإيقاع السريع الذي سيطر علينا، فكل من كانت صلاته خاشعة مطمئنة استطاع أن يظفر بذلك التأني ويضيف شيئاً من الطمأنينة لحياته..

« إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون»

ألم يحدث أن صادفت موقفاً كان فيه فعلك أو ردك غير مناسب؟ وحين مضيت واطمأننت جاءك الرد المناسب والفعل الرشيد، فتتعجب وتقول لِمَ لَمْ يأتِ ذلك الرد أو هذا الفعل وقتها؟!

ألم يحدث وظللت تبحث لساعات عن شيءٍ ضللته ولم تجده؟ حتى إذا مللت وانصرفت لأمرٍ آخر واستغرقت تذكرت مكان ذلك الشيء فجأة!

ذلك لأن العقل لا يُجيد العمل تحت الضغط، وإن أردت لعقلك أن يعمل بكامل كفاءته فلابد أن تتمهل، أرح عقلك، أعط تلك المُسكنات الربانية التي كتبها الحكيم لنا حقها، فأسبغ لها الوضوء، وامش لها بهدوء، واخشع فيها لتطمئن، ولا تنسَ أنها كانت تُعين الفاروق في تجهيز الجيوش..

الترك:

أيضًا لكي تستطيع أن تتمهل في تلك الحياة المتسارعة التي نعيشها عليك بترك بعض الأمور، عليك بقول (لا) للأشياء والأشخاص فتفرِّغ بعض الوقت لنفسك، لادخار طاقتك، للتفكر، فتخرج من تلك الحلقة التي لا تنتهي فتبدأ باستشعار نِعم الله الكريم عليك.

ليس من الحكمة أبدًا أن تحاول إنجاز عشرات الأمور في يومك، وتُلبي جميع الدعوات، فتظل تلهث هنا وهناك فيُصيبك شيء من عدم الرضافي نهاية كل يوم، أنت طاقة.. وإن لم تستغل طاقتك في الأمور المهمة فستُهدر تلقائيًّا في الأمور غير المهمة.

لا تحاول أن تتقمص دور الرجل الحديدي الذي يستطيع إنجاز كل شيء، فتلك من خدع النفس، تجعلك تبدو أنك مشغول دائماً لكنك في الحقيقة لا تُنجز شيئاً، فلابد أن تتخلى عن بعض الأمور في حياتك وتركز على القليل المهم.

وفي تجربة طريفة أجراها بروفيسور جامعي مع طلابه حيث أتى بإناء فارغ ثم وضع فيه بعض كرات الغولف الصغيرة حتى بدا ممتلئًا، ثم سألهم هل الإناء ممتلئ لآخره أم لا؟ فأجمع كل الطلاب أنه ممتلئ!

فأضاف البروفيسور بعض الحصى الصغير للإناء، فاحتوى الإناء ذلك الحصى حيث ملأ المسافات البينية لكرات الغولف، ثم أعاد السؤال على الطلاب، هل الإناء ممتلئ لآخره أم لا؟ فأجمع كل الطلاب مرة أخرى أنه ممتلئ!

أضاف البروفيسور كمية من الرمال للإناء، فاحتوى الإناء الرمال حيث ملأت المسافات البينية للحصى وكرات الغولف، وبدا الإناء وكأنه ممتلئ لآخره، ثم أعاد سؤاله وكانت الإجابة نفسها!

أخرج البروفيسور زجاجة مياه صغيرة وبدأ بسكبها داخل الإناء فاحتوى الإناء كمية الماء حيث ملأت المسافات البينية الصغيرة للرمال وسط دهشة الطلاب... فأخبرهم بالحكمة من تلك التجربة!

الإناء هو حياتنا، وكرات الغولف هي الأمور المهمة لنا، بينما الرمال هي الأمور غير المهمة، فعندما نرتب حياتنا بوضع الأمور المهمة أولاً، نستطيع أن نستوعب بعضًا من الأمور الأقل أهمية، لكن إذا أخطأنا ووضعنا الأمور غير المهمة أولاً (الرمال) فلن نجد مكاناً لكرات الغولف.

الأمور غير المهمة في حياتنا هي أمور تبدو بسيطة بلا تأثير، نفعلها دون أن نُعيرها اهتماماً، لكنها في الحقيقة كثيرة تُزاحمنا، تستهلكنا دون أن ندري فلا نجد طاقة للأمور المهمة فنظل نُؤجلها حتى نتركها ثم ننساها، بعد ذلك نشتكي أننا لا نُنجز شيئًا متحججين بضيق الوقت، ذلك الوقت الذي ضيقناه بأنفسنا.

كي أكتب هذا الكتاب فأنا قد تركت بعض الأمور التي اعتدت فعلها حتى أُفرغ الوقت والطاقة للكتابة، نعم أنا أُحب تلك الأمور لكنها غير مهمة؛ لذلك أزلتها من جانب (القليل المهم) حتى لا تُزاحمه، ولكي أحافظ على صلاة الفجر فأنا أعتذر عن أية مقابلات بعد صلاة العشاء إلا الضروري جدًّا منها، ولكي أحظى ببعض الوقت المثمر مع عائلتي فأنا أقول (لا) لأمور أخرى..

مبدأ (القليل المهم) هو سر نجاح الدول المتقدمة والشركات الرائدة، لذلك يجب أن تستخدمه لترتب حياتك، وهو يسمى بمبدأ (باريتو) نسبة لعالم الاقتصاد الإيطالي فليفريدو باريتو **Vilfredo Pareto**، وهو ببساطة يقول إن ٢٠% من الأسباب (القليل المهم) تؤدي إلى ٨٠% من النتائج.

فمثلاً الدول المتقدمة تعتمد على القليل المتميز (ربما ٢٠% أو أقل) من إجمالي مواطنيها لوضع حلول وأنظمة مبتكرة في كل مجال يتبعها كل الشعب، فالتركيز على (القليل المهم) أدى إلى ٨٠% أو أكثر من النتائج المطلوبة، أيضاً شركة مثل شركة آبل **Apple** تُحقق معظم أرباحها من مبيعات منتج واحد فقط آيفون **iPhone**، أيضاً نجد أن عددًا قليلًا جدًّا من الشركات الأمريكية تستحوذ على نسبة كبيرة من رأس مال السوق.. وهكذا.

وهو مبدأ قرآني ثابت، أشار الحكيم إليه في قوله:

«فأما الزَّبَدُ فيذهب جُفَاءً
وأما ما ينفع الناسَ فيَمْكُثُ في الأرض»

ومن المعلوم أن الزبد إشارة للكثرة
فالزبد هو رغوة البحر
يستحوذ على مساحة كبيرة جدًّا وربما يغطي شاطئًا بأكمله
لكنه هش.. لا فائدة منه
قليل من نسمات الهواء يذهب به فيتطاير ويجف.

ربما تعرف ماهية الزبد في حياتك
ذلك الكثير الذي لا طائل منه
ذلك الكثير الذي يستهلكك
فاتركه حتى تستعيد صفاء حياتك

وإن لم تكن تعرفه فيكفيك أن تتشبث بالقليل المهم وتترك ما دونه
فما يحول بينك وبين ركعتي الفجر كل يوم هو زبد فاتركه
وما يؤخرك عن عملك كل يوم هو زبد فاتركه
وإن لم تنظر في مصحفك دقائق كل يوم
فابحث عن ذلك الزبد الذي يشغلك لتتركه
انفض الزبد عن أحلامك لتجد لها وقتًا وطاقة
وامسح الزبد عن عينيك لترى نِعم الوهاب عليك.

الأربعون الرياضية:

ربما تعرف الأربعين النووية للإمام النووي -رحمه الله- وهو مؤلَّف يحتوي على اثنين وأربعين حديثاً نبويًّا شريفًا، التزم في جمعها أن تكون صحيحة، اشتملت على جوامع كلام النبي ﷺ، بالإضافة إلى الكثير من قواعد الإسلام وأحكام الشريعة والفقه.

على الجانب الآخر كتب المؤرخ محمد خير رمضان كتابًا سماه (الأربعون الرياضية) وجمع فيه أربعين حديثاً نبويًّا صحيحًا في فضائل الرياضة والحث عليها، ذلك لأننا عندما نذكر الرياضة أو نحث عليها، يظن البعض أننا نتحدث عن أمر ثانوي، عن أمر من توافه الأمور أو ترفها، ولا يعرف أن الرياضة هي ضمن ذلك القليل المهم الذي يجب الأخذ به.

لعدة سنوات كنت أرى الشيخ الدكتور محمد إسماعيل المُقدم يتدرب في نفس النادي الرياضي (الجيم) الذي أرتاده، ولمن لا يعرف الشيخ المُقدم فهو علَّامة، له كثير من المؤلفات ويعرفه أغلب طلاب العلم الشرعي وتلمذ على يده كثير من الشيوخ، لكنه نادر الظهور إعلاميًّا، وكان حريصًا على ممارسة الرياضة بانتظام ويرى أنها تُعين على الفرائض وقيام الليل والتأليف وأعمال الخير؛ لأن عزم القلوب لابد له من عزم البدن.

ومن خلال حديثي مع بعض الشباب الذين لا يُحافظون على الصلاة بانتظام، وجدت أن مشكلتهم الأساسية هي مشكلة بدنية ليست روحانية، فهم لديهم حالة من الوهن العام والكسل بسبب عدم ممارسة الرياضة والتغذية السيئة، فهم تاركون لكثير من أمور الخير وعلى رأسها الصلاة.

لن تستشعر هذا المعنى إلا بعد أن تبدأ بممارسة الرياضة، ستجد أنك كنت مفتقداً لذلك القدر الكبير من الطاقة والحيوية الذي يُعينك على كثير من الأمور ويُحسن من كفاءة نومك ومزاجك، فعند ممارسة الأنشطة البدنية يفرز الجسم هرمون الإندروفين **Endorphin** المعروف باسم هرمون السعادة، فيتسحن المزاج تلقائيًّا، وأيضاً يعتبر الإندروفين مُسكنًا طبيعيًّا للألم فيزيد من كفاءة النوم.

ولا تُمارس الرياضة من أجل إنقاص وزنك حتى لا تتركها إن لم تخسر ذلك الوزن، لا تربط الرياضة بهدفٍ آخر، فقط اجعل لك عشرين دقيقة كل يوم لعمل نشاط بدني، أي نشاط بدني تُطيقه، سواء داخل بيتك أو خارجه، افعلها كتعبير عن امتنانك لنعمة العافية التي وُهبت لك وستجدها مكتوبة في ميزان أعمالك الصالحة إن شاء الكريم.

حين اعتمر المُختار ﷺ وأصحابه بعد صلح الحديبية بعام، كان قد رآهم كفار قريش يطوفون بالكعبة، فقالوا مستهزئين: يطوف اليوم بالكعبة قوم أنهكتهم حمى يثرب (إشارة للضعف)، فقال الرسول ﷺ:

«رحم الله امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوة»

واضطبع ﷺ بردائه (أي أدخل الرداء من تحت إبطه الأيمن) بحيث يبدي منكبه وعضده الأيمن وقد فعل مثله شباب المسلمين في طوافهم حول الكعبة، ليرى كفار قريش قوتهم بعد أن استهزأوا بهم.

كان سيدي ﷺ عريض الصدر، بعيد ما بين المِنْكَبين، ضخم الكراديس، والكراديس هي ملتقى العظام، فكان كتفه بارزاً قليلاً عن ذراعه وأعلى ذراعه بارزاً عن مرفقه، سواء البطن والصدر، أي لم يكن بطنه بارزاً عن صدره، معتدل الخلْق.. لنا فيه أسوة عليه السلام ☺

تمهل صبرًا:

إن الله مع الصابرين، أولئك الذين صبروا على شيءٍ أصابهم، لكنه أيضاً مع أولئك الذين صبروا لشيءٍ أرادوه، كلما ذُكِرت لنا كلمة صبر، تبادر إلى أذهاننا النوع الأول فقط، صبر رد الفعل، الصبر على شيء، ونسينا أن هناك صبرًا آخر، صبر الفعل، أن نصبر حتى نُحقق أمراً أردناه.

صوِّر لنا من النجاح فقط لحظاته الأخيرة، لحظات التتويج، المشهد الختامي، لكنهم لم يُصوروا لنا طريقه، ربما طُمس طريقه عمدًا لإخفاء بعض النجاحات المزيفة أو لبيع منتجات النجاح السريع التي تجتذب الأغلبية، وعلى كلّ؛ فقد اشتهت أنفسنا لحظات النجاح فقط وآثرت الصوم عن رحلته.

أدمنا كل ما يُحقق لنا قدرًا كبيرًا من البهجة بقليل من الجهد حتى فقدنا حاسة الصبر وفقدنا معها أحلامنا، نتمنى.. لكن إن كان الطريق لما نتمناه خاليًا من الإثارة والبهجة، تركناه لنبحث عن وصفات سريعة تأتي لنا بما نريد دون السير له، فتعود لنا تلك الوصفات بخيبة الأمل بدلًا من الأمل.

خدعوك عندما قالوا إنك يمكن أن تُصبح مليونيراً بين نهار وليل، وأقنعوك كذباً أنك ستجيد تلك اللغة خلال أيام، ووعدوك سراباً بأنك ستخسر وزنك الزائد في أسبوع، وألقوا بك حين اعتقدت أنك ستصبح زوجًا ناجحًا بمجرد أن تتزوج أو أبًا فاضلًا دون فضل..

تلك بضاعتهم.. لكن بضاعة القرآن صادقة، ساندت كل من أخذ بها حتى أوصلته لما يُريد، بضاعة القرآن هي الصبر، صبر المثابرة، صبر الفعل، بيعت لنا مجانية لكن زهد الكثير فيها، فتميز القليل الذي أخذ بها، وأعطاهم الوهاب ذلك الذي صبروا لأجله، وهي أداتك الوحيدة للإنجاز، والنجاح لا يعرف غيرها ولا يُطيقها المهازيل..

فهذا الإمام أبو حنيفة النعمان، الإمام الكبير الذي ملأ علمه الأرض، حتى قيل إن كل من زار الكوفة وقت درس أبي حنيفة ظنها خالية، فالكوفة كلها كانت تحضر درسه، وقال عنه علماء عصره: لم نر أعلم منه في الفقه (وفوق كل ذي علم عليم)، أترُى لكم صبر أبو حنيفة حتى يُحصّل ذلك العلم؟!

عشرون سنة.. يرافق شيخه حمادًا عشرين سنة، وبدأ بتعلم ثلاث مسائل فقط كل يوم، يصبر على تلقي العلم طالباً وهو التاجر الغني، وبدأ بتعليم الناس وهو في سن الأربعين أو يزيد قليلاً، ثم أسس مدرسة فقهية حوت كل فنون العلم وقتها حتى أخذ مذهبه أكثر أهل الأرض.

عشرون سنة!! فهل صبرت لهدفٍ تريده سنة واحدة؟ أم أنك تُلقي بألواح آمالك إذا شعرت بالملل وتنسحب إذا عبست في وجهك الظروف، أما آن أن تسترد ذلك الحلم الذي شغفك وتزيح عنه غبار التعجل، فتنكب عليه صابراً متمهلاً حتى تملكه..

ستملكه.. أي شيء تمارسه كل يوم ستتقنه، فالممارسات تُعطي الملكات، فقط صم آذانك عن المُثبطين وابدأ، وما إن تبدأ سينكشف لك الطريق رويداً، واعلم أن المكاره ستُلقى عليك لتُعرف إن كنت من القلة الصابرة أم من الكثرة المتعجلة، فاصمد وستمضي مرارة الطريق ويلوح لك ما أردت، ولك في الصلاة ملجأ فاستعن بها، يُفتح لك.

الصبر ضياء.. حكمة قالها الحبيب ﷺ رأيتها في ذلك الشيخ الكهل، كان يقرأ القرآن وكأنه أُنزل عليه، ضابطاً مُتمكناً، وكان لصوته قوة غلبت شيبته، أُعجبت به فقصدته لأتعرف على سره، جاوز التسعين، ولم يقرأ من مُصحفٍ منذ عشرين عامًا، يختم كل ستة أيام ختمة من حفظه!!

وجاءت المفاجأة.. حين أخبرني أن أول تجربة له مع المُصحف كانت وهو في الثالثة والأربعين، قبلها كان له منه فقط الفاتحة وبعض قصار السور، فوضع الهدف وصبر عليه أربعة عشر عاماً، فحفظ القرآن على مُكث وهو في السابعة والخمسين، لم يمل ولم ينسحب، فوهبه الوهاب ما صبر لأجله، فأصبح ماهراً بالقرآن والقرآن رفيقه.

لم يخذل الصبر أبداً أحداً تشبث به، فهذا فتى ياباني وُلد عام ١٨٩٩ في أسرة تُعاني الفقر الشديد، مات خمسة من عائلته بسبب سوء التغذية، وقد فشل في الدراسة فتركها وهو في الصف الثامن، عمل بعد ذلك في ورشة صغيرة وأقبل على ميكانيكا السيارات وأحبها، فاقترض مبلغاً من المال ليعمل حلقات صمام لشركة سيارات كبرى، ولكنها مع الأسف لم توافق مقاييس الشركة.

لم ينسحب.. دخل المدرسة ليطور تصميم الصمام، وبعد سنتين من الجهد والعمل وقّع مع الشركة العقد الذي كان يحلم به، ولكنه كان يحتاج إلى بناء مصنع لتزويد الشركة بالكمية المطلوبة، وكانت البلد في حالة حرب فرفضت الحكومة طلبه بتزويده بالأسمنت!

لم يشتكِ الظروف.. بل قام هو وفريقه باختراع عملية لإنتاج الأسمنت لبناء المصنع، وما إن بدأ التصنيع حتى قُصف المصنع أثناء الحرب!!

أعاد بناء الأجزاء المتضررة من المصنع، ثم بعد أيام قُصف المصنع مرة أخرى!! فتجرع المرارة دون تعبيس، وأعاد بناء المصنع مرة ثانية، وهكذا بدأ يصنّع الكميات المطلوبة لتلك الشركة، لكن عندما كان يعيش نشوة النجاح، حدث زلزال كبير فأصبح المصنع أثراً بعد عين..

وفي هذه الأثناء حدثت في بلدته أزمة أخرى، فقد عانت اليابان من انقطاع في إمدادات البنزين، كان يراها الأغلبية أزمة، ولكن صاحبنا بعزيمته رآها فرصة، وقام بتصنيع دراجات هوائية بمحرك يعمل على الكيروسين المتوافر بدلًا من البنزين، ونجحت الفكرة وحققت نجاحاً ساحقاً، وبدأ يحصد إنجاز صبره وهو في التاسعة والستين من عمره حين باعت شركته مليون دراجة نارية إلى الولايات المتحدة.

وكانت تلك هي البداية للانطلاق للعالمية، ومازالت شركته قائمة حتى الآن ويعمل فيها ما يقرب من مائة ألف عامل، لأن رجلاً واحداً فقط عزم على ألا يتوقف عن المحاولة.

لقد استطاع سوتشيرو هوندا **Soichiro Honda** أن يقف صلب العود أمام الفقر والفشل الدراسي وموت خمسة من عائلته بسوء تغذية، والحرب، وتحطم مصنعه مرتين، والزلزال المدمر، والركود الاقتصادي، إضافة إلى ذلك المنافسة الشرسة والعنيفة والمستمرة من الشركات الكبرى، حتى أصبحت شركة هوندا **Honda** أحد أعمدة اقتصاد اليابان الآن.

اصبر.. تظفر.. ترضى

(١٤)

قد أفلح

جرب أن تأخذ بيد عجوز لتعبر به الطريق وستشعر أنك أهم رجل على هذا الكوكب، أو أن تهدي بعض طعامك لقط جائع لتعرف أنك أكثر فاعلية من الأمم المتحدة، أو أن تدُس بضع دراهم في يد مسكين لم يسألك وسينتابك شعور عجيب بالسعادة.

وإن فعلت.. هنيئًا لك، فأنت من الفالحين!!

تلك الأرض التي نحن عليها نسبة إلى الكون كحصى صغيرة ملقاة في بيتك لا تكاد تراها، أخبرنا رب هذا الكون الواسع ومالكه بالفالحين طبقًا لمعاييره هو سبحانه، فتركنا نحن معايير العليم وانشغلنا بمعايير فوربس وشروط أوسكار وتقديرات نوبل وغيرها، فظننا أن من فاتته تلك المعايير هو نكرة مُستبعد بائس.

غضب رجل الأعمال البريطاني جيمس دايسون **James Dyson** عندما تم تقديمه في إحدى الندوات على أنه أغنى رجل في بريطانيا، وقال للمحاور أنا لست حسابًا بنكيًّا حتى تُقدمني طبقاً لما أملك من ثروة، أنا أفتخر بأنني أب يحب أبناءه ومهندس مخترع له أعمال مفيدة قبل أن أكون غنيًّا.

هذا رجل ألقى بمعاييرهم على الأرض واتخذ لنفسه معايير حقيقية يرضاها، معايير لا تعتمد على حسابه البنكي ولكن تعتمد على حسابه النفعي، ورب الكون الكريم جعل لنا معايير الفلاح بسيطة، متاحة كل يوم وليلة لمن يريد الأخذ بها، ليست معقدة كمعايير فوربس ولا مبهمة كترشيحات نوبل، تُنادينا حيّ على الفلاح، النجاح هنا فلا تستمع لهم..

يا من صليت صلاتك وجاهدت أن تكون خاشعاً، ارفع رأسك فأنت من الفالحين عند الله، ارفعها عزًّا لا تكبرًا، ارفعها والتقط بقايا ثقتك التي حطمتها معايير الفلاح الكاذبة حتى ظننت أنك عاطلٌ لا تُنجز شيئاً، ارفعها فأنت من القلة التي اجتازت معايير رب هذا الكون..

اكتبها ضمن إنجازات يومك، ولو لم تكتب غيرها لكفتك، أقم لها احتفالاً كل عام، حدث بها نفسك كلما سخروا منك وقارنوك بقياسهم، وتلك ليست دعوة للعُجب أو القعود، فكلٌّ أدرى بنفسه، ولكنها دعوة لاسترداد الثقة وتقدير الذات في زمن تفنن فيه إبليس في التحقير منا وتثبيطنا..

هي دعوة للسعي.. لكن شتان بين ساعٍ مُحطَّمٍ اختلطت عليه المعايير فظن أنه بطّال لا رجاء فيه، وبين ساعٍ تملؤه الثقة بالله، يعلم في قرارة نفسه أنه متميز، ناجح في نظر خالقه، فيسعى قويًّا مُحققاً ما أراد..

إن الله اصطفى لنا ديناً مضادًّا للاكتئاب باعثاً للسعادة، تسقي فيه كلباً فتجد أن الجائزة الجنة، تبتسم في وجه أخيك فتُكتب لك صدقة، تسقي فيه قلباً فتُدعى على رءوس الخلائق يوم القيامة لتحتفل بك الملائكة فتعلم أنك كنت في الدنيا من القلة الفالحين وأنت لا تدري!

تاج الفالحات:

رأى ذو النون المصري جارية مُتعلقة بأستار الكعبة تقول: يا سيدي بحبك لي غفرت لي، فقال لها: تأدبي يا جارية وقولي بحُبي لك لا بحبك لي، فقالت له: اسكت يا بطّال، فإني كنت في عُقر دار الكفر لا أدري عن الله شيئاً، فأرسل الله أولياءه وقُتل منهم كثير حتى نصرهم على قومي فعرفت الله وشهدت أن لا إله إلا هو. ربٌّ فعل كل هذا لأجلي، وسالت دماء أوليائه حتى أعرفه، ألا أُناجيه بحبه لي؟!

هي في نظر الناس جارية لكنها ترى نفسها ملكة مُدللة، يكفيها تميزاً أن عرفت الله وناجته، رأت تدبيره لها معية خاصة، فانطلقت تناجيه بحبه على مسمع الخلق، غير متخفية ولا متخافتة، قوية واثقة، إيمانها بالله جعلها مؤمنة بنفسها أيضاً!!

أماه.. أختاه.. يامن تقومين على بيت بالرعاية وعلى صغار بالتربية فأخبروكِ أسفاً أنكِ ربة بيتٍ ووضعوكِ في ذيل قائمة الفالحات، أخبريهم أن الجبار وضع الجنة تحت قدميكِ، وأنكِ ستأتين يوم الحساب بموازين صالحات كثيرة ثقيلة لا تدرين عنها شيئاً، أعمالٌ لم تعمليها وقد كُتبت في كتابكِ!

نعم.. فما ظنكِ برعاية رضيع والقوامة عليه بالسهر والتعب حتى ينشأ موحداً مؤمناً، أهينٌ هذا؟ أي ملك سيكتب صبر تلك السنين من الجهد؟ ملك اليمين أم ملك الشمال؟ كل ثانية في عمر ابنكِ رضيعاً هي في ميزانكِ، وكل أعماله الصالحة لكِ منها نصيب، وكل طعامٍ تُعِدِّينه لأهل بيتكِ لكِ به صدقة عن كل بطن، فهنيئًا لكِ الباقيات الصالحات، هنيئاً لكِ حسنات كالجبال، هنيئًا لكِ تاج الفالحات.

وتلك امرأة أُمية، لا تقرأ ولا تكتب، أسبابها محدودة، أخرجت لنا مجموعة من أعلم أهل الأرض، فهمت وعد الله الواسع بأن من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، فبحثت عن تلك الذرة وعملت عليها داخل بيتها دون ضجيج فجعلها الكريم سبباً جاريًا للخير يُنتفع به..

خرج زوجها مجاهداً مع جيوش المسلمين وتركها حملاً، ولما رجع بعد سبعٍ وعشرين سنة، دخل مسجد المدينة، فنظر إلى حلقة وافرة، فأتاها فوقف عليها، وإذا فيها مالك والحسن وجمع ممن أصبحوا أئمة العلماء بعد ذلك، جميعهم يأخذون العلم عن فقيهٍ ترأس الحلقة، فلما سأل عن ذلك الفقيه صاحب الحلقة أجابوه بأنه ربيعة ابن أبي عبد الرحمن (ابنه)!!

تلك امرأة سطرت اسمها بين رءوس العلماء وهي ليست بعالمة، وأجرت لها صدقة جارية إلى يوم القيامة يعجز الأغنياء عن محاكاتها، نفعت الأمة كلها وهي لم تتخطَّ أعتاب بيتها، إن لم تكن تلك الفالحة فمن تكون! ما لكم كيف تحكمون؟ لما سمحنا للشيطان أن يُحقر لنا أعمالاً عظّمها لنا رَبُّنا، ووعدنا فقرًا فأملى علينا شروطاً للفلاح ليست في كتابنا..

أولئك المفلحون:

أبٌ بسيط مُزارع غير معروف في الأرض، علم أن ابنه يخدعه في أمر ما، ففضل الإحسان للابن على عقابه، وكان صادقاً، اختبار بسيط يمر علينا في اليوم مرات، اختبار الإحسان، اختبار يستغرق ثوانِي، لكنه اختبار للفلاح، ليس بالضرورة أن تجتاز اختبارات هارفارد حتى تكون فالحاً، نجح هذا الرجل في ذلك الاختبار البسيط كحاله ومضى دون أن يدري أن ثمرة إحسانه ستبلغ الآفاق!

أراد لابنه أن يكون طالب علم وأراد ابنه أن يكون مُزارعاً، أصر الأب فأطاع الابن وهو عابس، التحق بالأزهر على كرهٍ وبعد عامين قرر أن يُرهق أباه ماديًّا حتى يعزف عن رأيه..

استدعى الابن أباه حتى يشتري له كتب العام الجديد، واتفق سرًّا مع صاحب المكتبة أن يزيد له كُتباً ليست مقررة عليه حتى يذيق أباه مرارة اختياره للعلم، خرج الأب البسيط مُسافراً من ريف مصر إلى القاهرة مدينة الأزهر مُلبياً طلب ابنه، وهو لا يعلم أن الملائكة جهزت له دفاتر صالحات مازالت باقية إلى الآن..

وما إن أتى المكتبة حتى وجد نفسه متورطاً في شراء كُتب ضخمة كالصخور يعجز عن حملها ليسأل ابنه مُتعجباً: أمقررٌ عليك هذا؟ فيُقر له الابن الذي ظن أن خطته قد نجحت، أسرها الأب في نفسه ودفع ثمن الكُتب التي باع لأجلها بعض أملاكه، واستأجر عربة كارو لحمل الكُتب لغرفة ابنه، زاد إحساناً ليقضي ليلته يُغلف تلك الكُتب المزخرفة حتى الفجر..

صلى مع ابنه ثم توجه لمحطة القطار عائداً، وقبل أن يتحرك القطار بدقائق وبينما يودع ابنه قال له كلمات جعلها الله سبباً في تكوين وجدان عالِم: يا محمد إني أعلم أن تلك الكُتب ليست مُقررة عليك ولكني اشتريتها وغلفتها عسى أن تنفعك فتُصبح عالماً!!

غادر الأب لكن كلماته ظلت باقية، اهتزت أعماق الابن أمام ذلك الإحسان، استحيت نفسه التي أمرته مكرًا فعاهدها أن يُحقق رجاء أبيه، عاد إلى غرفته للعلم مُشمراً بعد أن غادرها له كارهاً..

رجل بسيط لم تتصدر صورته مجلة فوربس ولم يُذكر اسمه على كتّاب، رجل من أولئك الذين إذا غابوا لم يُفتقدوا وإذا حضروا لم يُعدوا، أخرج لنا -بفضل من الله- إمام الدعاة الشيخ محمد متولي الشعراوي..

الشيخ الذي جمع بأسلوبه السهل وحديثه الشيق قلوب ملايين المُسلمين، آذان مصغية وعيون شاخصة، أعناق مشرئبة وقلوب تنصت بإيمان، الصغير والكبير والمتعلم والأمي، الكل متحلق حول كرسي ليستمع إلى خواطره الإيمانية للقرآن، يحدثهم بلغتهم البسيطة، لا يقاطع حديثه إلا ابتسامات الحضور أو كلمة "الله" ممدودة بعض الشيء دليلاً على فهم ما كان غامضًا.. كان هكذا درسه لعشرات السنين، وكل هذا في ميزان رجل بسيط حظه من العلم قليل لكنه من الفالحين.

لم يكن يقصد أن يكون ابنه إمام الدعاة
أراده فقط مُتعلماً
لكن هكذا الإحسان وهكذا رب الإحسان

مثقال ذرة:

لا تنتظر حتى تُدير شركة رأس مالها ملايين الدولارات أو أن تفوز بجائزة الرجل الأخضر كي تُخبر ذاتك المُنهكة أنك من الفالحين..

فتش عن ذرات الفلاح في يومك واظفر بها
زكِّ ذاتك.. أو أضف شيئاً لحياة الخلق حولك

إن خرجت ساعياً لتكفي أهل بيتك حلالاً
فأنت في سبيل الله
قد رفعك الله العظيم فلا تجعل أحداً يضع منك
يحبك الله على هيئتك أياً كانت وأنت عنده من المُفلحين

يامن غضضت بصرك في زمن طلّق فيه الرجال أبصارهم
أنت من شرفاء القوم
لك سيرة ذاتية غير تلك التي تطلب بها عملاً
سيرة تكتبها الملائكة
عندهم.. سرقة الأعراض أشد من سرقة العوارض
فهنيئاً لك وسام الشرف.. أنت من الفالحين

ومن هؤلاء الفالحين.. موظف بسيط تقي
جلس على مكتب رث لهيئة عامة
في مكان غلب عليه ضجة الصياح
ظهر من الرجل ابتسامته فقط حيث غطى زحام الناس باقيه
أقرانه يصرخون ويبطشون ويتلكعون
لكنه كان هادئاً رغم اضطراب كل شيء حوله
متبسماً في وجه كل من قصده
صابراً مع كبار السن
مُنجزاً
من أتاه عابساً ودعه ضاحكاً

هذا الرجل على بساطته حوى في بشاشته وثباته مئات الكتب التي عجز عن تطبيقها ذاك الذي خنقت الربطة عنقه فتكلح وجهه وتقطب جبينه حتى أتعس كل من يلقاه، مُتنكراً في النجاح وراء لافتة وُضعت على مكتبه نُقش عليها (مدير) وهو لا يُحسن إدارة نفسه!

هذا الرجل السهل لو رآه توني شاي **Tony Hsieh** مؤسس أفضل نظام خدمة عملاء في الكوكب لجعل منه منهجاً يُدرس في أكبر الشركات، لأنه من الفالحين.

هذا الذي خذلك ثم ندم
فأتاك آسفاً مُتلعثماً يبحث عن الكلمات
فقصرت عليه السرد
ووفرت عليه الاعتذار
وبدلت الحديث.. لتسأله عن حاله
ليرى الصدق في عينيك.. فيطمئن أنك قد عفوت
وقتها أنت من الفالحين.. فالعفو فلاح
لضد العفو قامت حروب نفسية وبشرية
قُطعت أرحام.. مُزقت صداقات.. خُربت بيوت
لضد العفو ولضده فقط يكافئ إبليس صبيانه
فالصفح اقتصاد القلب
يوفر نفقات الغضب وتكاليف البغض
هنيئاً لك السيادة.. فإن من عفا ساد

يا من أحييت سُنة من سُنن المُختار ﷺ
أنت من القليل المتميز
لك أجر كأجر خمسين صحابيًّا
أخبرهم بها حين يسألونك ماذا أنجزت!

قُل كلمة طيبة تكن من الفالحين
فإليه يصعد الكلم الطيب

فإن كلمة أنقذت موسى من بطش فرعون
لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا
ومن بعدها تغير كل شيء

لا تقتلوا يوسف
أيضاً كانت كلمة
تعافت بها أمة
كانت على حافة الجوع

عيسى ما كان سوى كلمة
مفتاح الجنة في كلمة
ودخول النار على كلمة
وقضاء الله هو الكلمة

الكلمة نور
أصلها ثابت وفرعها في السماء

أعرض عن الغيبة
سُد دينًا عن مدين
أطعِم مفترشي الطريق

قبل يد والديك
علم أبناءك قيمة نافعة
كن أنت السعادة لأهل بيتك

زر مريضاً
هادِ دار أيتام
تصدق ببعض ملابسك

صلِّ الضُّحى
اذكر الله كثيرًا
ابن لك بيتاً في الجنة

وتلك ليست دعوة للقعود
بل دعوة للسعي
فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره

(١٥)

سيد التفاؤل

"كيف بك يا سُراقة إذا لبستَ سواريْ كسرى؟"

أعظم عبارة تفاؤل قيلت في التاريخ
عبارة تغير لها التاريخ
حوت داخلها قوة ليست كأي قوة
القوة بالله.. وكفى بها قوة.

بدا قائلها أنه لا يمتلك أي قوة مادية وقتها
فِداه نفسي عليه أفضل الصلاة والسلام
كان في أضعف حالاته وأشد أوقاته
مُهاجراً .. طريدًا شريدًا .. مهدورًا دمه
مائة ناقة وضعت لمن يأتي به .. حيًّا أو غير حي

فتقدم فارس من فرسان قومه القليل، سُراقة بن مالك، طويل القامة، عظيم الهامة، بصير باقتفاء الأثر، صبور على أهوال الطريق، وكان إلى ذلك كله، أريبًا، لبيبًا، وكانت فرسه من عتاق الخيل.

لبس سراقة درعه .. وتقلد سلاحه .. وامتطى صهوة فرسه
وطفق يغز السير ليدرك محمدًا قبل أن يأخذه أحدٌ سواه
مضى يطوي الأرض طيًّا
لكنه ما لبث أن عثرت به فرسه وسقط عن صهوتها فتشاءم
أقامها ومضى فعثرت به مرة أخرى .. فازداد تشاؤماً
همّ بالرجوع .. حتى أبصر محمدًا ﷺ وصاحبه
فمد يده إلى قوسه .. لكن يده جمدت لم تتحرك!
رأى قوائم فرسه تغوص في الأرض .. والدخان يتصاعد من بينها
دفع الفرس فإذا بها كالجبل الراسخ!

لم يجد سوى المُختار ﷺ ليستغيث به
فقال بصوت ضارع..
يا هذان ادعوا لي ربكما أن يطلق قوائم فرسي
ولكما عليّ أن أكف القوم عنكما
فدعا له الصادق الأمين .. فأطلق الله له فرسه.

تحركت أطماعه .. نقض عهده
فدفع فرسه نحوهما .. ليدركهما
حتى صار بينه وبينهما مسافة فرس
فغاصت قوائم فرسه أخرى
فعلم أنه يُطارد معصوماً!

فنادى .. إليكما زادي ومتاعي وسلاحي
ولكما علي العهد أن أرد عنكما من ورائي من الناس!
لكن القوم وضعوا مائة ناقة لمن يدرككم
فعاهدني يا محمد أن تُكرمني إذا ظهر دينك وعلا أمرك!

فقال المصطفى ﷺ:

"كيف بك يا سُراقة إذا لبستَ سواريْ كسرى؟"

فقال سُراقة متعجباً: كسرى من؟
كسرى بن هرمز .. ملك الفُرس!!!
فقال ﷺ: هو أعني.

قال سُراقة: يا محمد، أتعدُني سواريْ كسرى وأنت فار هارب!
يا محمد إنك رجل لا تكذب .. فاكتب لي بذلك.
فالتفت ﷺ إلى الصديق أبي بكر -رضي الله عنه- وقال اكتبها له
فكتبها الصديق على رقعة ودفعها إليه.

ذلك الوعد الذي كتبه النبي ﷺ لسُراقة كان يَعني أنه سيصل إلى المدينة سالماً، وسيؤسس دولة وجيشاً، وذلك الجيش سيفتح البلاد حتى يحارب أقوى دولة على الأرض وقتها (فارس) وينزع مُلك حاكمها، أحد أشد ملوك الأرض وأكثرهم بطشاً (كسرى)، بل ستبلغ قوة هذا الجيش أن يغنم زينة كسرى نفسه، تاجه المرصع بالدر، وثيابه المنسوجة بخيوط الذهب، ووشاحه المنظوم بالجوهر، وسواريه اللذين لم يُرَ مثلهما!

ما هي تلك القوة التي جعلت النبي ﷺ -وهو في أشد أوقاته- يعد أعرابيًّا من البادية أنه سيلبس سواري أقوى ملوك الدُنيا؟

وعد الله

وعد الله العليم رسوله أن رسالته ستنتصر وتظهر على أقوى أمم الأرض، هكذا كان الوعد فقط، لم يتضمن الوعد أي أسباب مادية يمكن التشبث بها أو توقيتًا محددًا أومعجزات خارقة يعلمها النبي ﷺ مُسبقًا، بل أمر الله عز وجل حبيبه ﷺ أن يأخذ بكل الأسباب للهجرة، فأعد الراحلتين، وتخفى هو وصاحبه، واتخذ دليلاً، وسلك طريقاً للمدينة غير الذي يسلكه الناس.

اتكأ النبي ﷺ على ذلك الوعد الرباني وجعل منه قوة باعثة للتفاؤل يضرب بها المحن والشدائد. قبل واقعة سُراقة بأيام تخفى المُختار ﷺ وصاحبه الصديق -رضي الله عنه- في غار ثور، تتبعهم كفار قريش بسيوفهم عازمين قتلهم حتى وصلوا إلى أعتاب الغار، بكى الصديق خوفاً على حبيبه وهمس إليه أن لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرهم، فقال له الحبيب ﷺ: ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا!

قالها النبي ﷺ واثقاً بوعد ربه، الوعد فقط، لم يعلم وهو يقولها أن هناك معجزة ربانية تُدبر له على أعتاب الغار، لم يسأل ربه عن كيفية نصره ولم يتساءلها حتى في نفسه، اكتفى بوعد الله له فتفاءل به وبث ذلك التفاؤل في نفس صاحبه، أيده الله بجنودٍ محجوبة، وروي أن عنكبوتًا نسجت خيطها على مدخل الغار فانصرف عنه مشركو قريش.

والعجيب أن وعد النبي ﷺ لسُراقة بسواري كسرى لم يتحقق في حياته ﷺ أصلاً ولاحياة صاحبه الصديق الذي شهد الواقعة، بل فتح المسلمون فارس في خلافة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وكان وقتها سُراقة بن مالك شيخاً مُسلماً، فوعود الله تحقق لمن صدق وآمن بها، أقصد هنا المُصطفى ﷺ الذي تفاءل بوعد لم يتحقق في حياته.

أُتِي الفاروق بالغنائم وفيها زينة كسرى ابن هرمز، فنادى الفاروق سُراقة وألبسه قميص كسرى وخفيه وقلده سيفه ووضع على رأسه تاجه وألبسه سواريه، وقال عمر-رضي الله عنه-: الله أكبر، هذا ما وعدنا الله ورسوله والحمد لله الذي سلبهما كسرى الذي كان يقول أنا رب الناس وألبسهما سراقة بن مالك أعرابيًّا من بني مدلج. ثم أركب سراقة فرسًا طاف به المدينة المنورة احتفاء والناس حوله.

الله هو الله

وعود الله ثابتة لا تتغير

وزوال الدنيا أهون على الله القدير من ألا يُحقق وعده للمؤمنين

لكن هل نحن تعاملنا مع وعود الله العزيز لنا كما تعامل معها مُعلمنا ﷺ؟

هل تشبثت قلوبنا بوعود الله وسط الشدائد؟

أم نبدأ في التذمر والسخط مع أول اختبار وننسى وعد الله!

خندق الأمل

تمر الأيام..
ويؤسس النبي ﷺ دولة وجيشًا في المدينة
وبعد أن خرج من مكة مُتخفيًا هو وصاحبه الصديق فقط
يبدأ في مواجهة كفار قريش بصحابته من رجال المُسلمين
وتتابع الغزوات .. ويكون النصر للمؤمنين في أغلبها

حتى تأتي غزوة الأحزاب (الخندق)
حين قررت قريش أن تُحاصر مدينة النبي الكريم
متحالفة مع عدد من القبائل الأخرى
فجمعت ما يزيد على عشرة آلاف مُقاتل
وتحركت هذه الأحزاب معاً لتُحاصر المدينة

تماماً كما تُحاصرنا الدُّنيا أحياناً حتى تكاد تخنقنا
وتتحالف الظروف ضدنا لتختبر إيماننا بوعد الله

علم النبي ﷺ بالأمر وجلس مع صحابته يشاورهم
وكانوا مهاجرين وأنصارًا وأعاجم ليسوا بعرب

كان من أعاجم المُسلمين في المدينة صحابي اسمه سلمان الفارسي، هرب من فارس يبحث عن الدين الحق بعد أن وجد قومه يعبدون النار، عايش المجوسية والنصرانية واليهودية قبيل ظهور الإسلام، أثناء مُصاحبته لأحد الصالحين من النصارى، أوصاه ذلك الرجل الصالح قبل موته بأن يرحل إلى أرض العرب فسيُبعث فيهم نبي على دين إبراهيم، فانتهى الترحال بسلمان الفارسي أن بيع كعبدٍ ليهودي في المدينة، ولما هاجر النبي ﷺ للمدينة اعتنق سلمان الفارسي الإسلام، الدين الذي كان يبحث عنه.

وبينما يتشاور الصحابة في أمر حصار المدينة

أشار سلمان الفارسي على النبي ﷺ أن يحفر خندقًا

وقال: إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا

فعدد قريش وحلفاؤها تجاوز العشرة آلاف

بينما عدد المسلمين في المدينة لم يتجاوز ثلاثة آلاف

ولن يستطيع ثلاثة آلاف مواجهة عشرة آلاف إلا من خلال خندق

فيتجنبون هجوم العشرة آلاف عليهم هجمة رجل واحد

فعزم النبي ﷺ مع الصحابة على حفر الخندق شمال المدينة

حيث كان لشرق المدينة وغربها حماية طبيعية، مرتفعات وغابات

وجنوب المدينة يسكنه يهود بني قريظة وكانوا على عهدٍ مع رسول الله

وبينما يحفر صحابة النبي الكريم الخندق
يأتي الخبر بأن يهود بني قريظة قد خانوا العهد
وتحالفوا مع قريش ليُصبح جنوب المدينة ثغرة في ظهر المؤمنين
ثم يبدأ المنافقون بالتسلل من صفوف المُؤمنين
مُتحججين بأن بيوتهم أصبحت عورة
فينزل قول الله العليم «وما هي بِعورة إن يُريدون إلا فِرَارًا»

كل هذه الابتلاءات تحدث لأشرف الخلق .. الحبيب ﷺ
ومن كان معه هم صفوة الخلق .. السابقون الأولون
وصف الله الرحيم ذلك الابتلاء بالزلزال الشديد

«إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار
وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا.
هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالًا شديدًا»

وفي خضم تلك الأمواج المتلاطمة من المحن
يعترض طريق المؤمنين في حفر الخندق صخرة عظيمة
يهرعون إلى النبي ﷺ مستنجدين به في إزاحتها
فيشمر عن ساعد الجد ويضرب الصخرة ثلاث ضربات

ومع كل شرارة
يُحيي سيد التفاؤل ﷺ الأمل في نفوس أصحابه
يتكئ على نفس الوعد الذي وعده ربه مؤمناً به

فيقول في الأولى
الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح الشام
والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة

ويقول في الثانية
الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح فارس
والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض

وفي الثالثة قال
الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح اليمن
والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة

فيظهر نعيم بن مسعود
قائد من المُشركين المحاصرين للمدينة وقتها
يعيش حياة المجون والعبث والخلاعة
أبعد ما يكون عن الإسلام وضوابطه
لو أسلم المشركون فلربما كان هو آخرهم
يتسلل من جيش الأحزاب القوي الكثير
إلى جيش المؤمنين القليل المُحاصر
مُعلناً إسلامه سرًّا!!
هكذا دون مقدمات
إرادة الله المُهيمن الذي تفاءل به المؤمنون
ليصبح نعيم بن مسعود جنديًّا من جنود الله
فيوقع نعيم الخلاف بين قريش وبين يهود بني قريظة
لتدب الفُرقة بين الفريقين وتتفتت الأحزاب

ثم يبعث الله الجبار ريحًا شديدة قاسية البرودة
لم تترك للكافرين خيمة إلا واقتلعتها
ولم تترك قِدرًا إلا قلبته .. ولم تترك نارًا إلا أطفأتها
فلا يستقر للأحزاب موضع ولا مُقام
فيعودون من حيث أتوا خائبين مُنهزمين

يصف الله ذو القوة المتين حالهم بالزلزال الشديد
ويُصبح جنوب المدينة ثغرة في ظهورهم
ويتسلل المنافقون من الصف ساخرين قائلين
يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه قضاء حاجته

ومع ذلك لا يشتكي النبي وصحابته رضوان الله عليهم
لا يقولون لماذا كل هذا يارب ونحن أول من آمن بك!
بل يعملون بما توافر لهم من أسباب متفائلين بوعد الله لهم
فهموا الواقع فلم يسخطوا عليه .. فهموا سُنة الله فلم يشتكوا
لم يعدهم الله بأن الطريق للنصر سيكون سهلاً ممهداً
لكن وعدهم بأن يرافقهم الطريق وكفى بها رفقة ومعية
لأنهم هم من سيغيرون الواقع

سيُبتلون ويُزلزلون وتبلغ القلوب الحناجر
والله معهم يسمع ويرى
إلى أن يشتد الخناق وتنعقد العُقد وتتوقف الأسباب
فيتدخل الله بلطفه ﷻ فينصرهم من حيث لا يحتسبون
فتسكن القلوب التي بلغت حناجرها
وتخرج من محنتها متعبدة لربها كأنها تراه

زيادة الإيمان

قصة الخندق بكل ما فيها من أحداث ليست فقط قصة عاطفية مشحونة بالرموز، ووعد النبي الكريم ﷺ فيها لأصحابه بفتح الشام وفارس واليمن لم يكن فقط وعداً لرفع الهمم وشحن الطاقات، كلمات المُختار ﷺ كانت مُختارة مُحكمة، وقتها ومكانها كان وحياً، ما قيل وما حدث كان له غرض أساسي وهو (زيادة الإيمان) كما يسميه القرآن الكريم، بينما يطلق عليه علم النفس الحديث اسم التفاؤل المُكتسب **Learned Optimism.**

التفاؤل المُكتسب هو تفاؤل مبني على تجربة واقعية حدثت، وهو مختلف تمام الاختلاف عن كونه كلامًا تحفيزيًّا أو عبارات تشجيعية فقط، فعبارات الأمل أيًّا كانت قوتها غالبًا لن تعمل في الأوقات العصيبة مالم تكن مدعومة بتجربة أو تجارب سابقة تجعلك مؤمنًا بما تعتقده أو تقوله، أو أن تكون هي ذاتها وعدًا أنت تعلم أن قائله قادر على تحقيقه..

تجربة تعطلت فيها الأسباب، سُدت المنافذ، غُلّقت الأبواب، صُرف عنك كل شيء، لتتركك خالصًا لله، فتتشبث بوعده وتعتصم بحبله، فينجيك ويكفيك، ليستقر في قلبك أن ربًّا كفاك ما كان بالأمس سيكفيك في غدٍ ما يكون.. فتكتسب تفاؤلاً به.

لذلك كان لابد لصحابة الخندق -رضوان الله عليهم- أن يمروا بتلك المحنة التي وصفها الله بالزلزال، لأنهم هم الذين سيحملون رسالة الله إلى مشارق الأرض ومغاربها، وقادم التحديات أصعب وأشد، كان لابد لهم أن يكتسبوا تفاؤلًا مبنيًّا على تجربة واقعية ورسول الله ﷺ بينهم يعدهم، يجتمع عليهم الأحزاب وتُخرق الأسباب حتى تبلغ القلوب الحناجر ليتدخل الله بلطفه فينصرهم ليعيشوا حالة من أعمق حالات الإيمان بالله، زيادة في الإيمان تجعل قلوبهم وكأنها ترفرف حول العرش.

«ولما رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا هذا ما وعدَنَا اللهُ ورسولُه وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا»

زادهم إيمانًا!!
أوليس المؤمن مؤمناً وانتهى الأمر!
وهل يحتاج المؤمن إلى زيادة الإيمان؟

نعم.. كل مؤمن يحتاج لزيادة الإيمان، وأنا أقصد هنا المعنى المباشر والصريح للإيمان، لا التفاف حول المعنى، نحن نؤمن بإله لا نراه لكن أراد لنا الله الرحمن أن نعبده وكأننا نراه، أراد لنا أن نشعر بمعيته في كل وقت، فيرسل لنا تجارب وإشارات تزيد إيماننا به والتفاؤل إليه.

قلب أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- قبل الهجرة النبوية ليس كقلبه بعدها، ذلك الفؤاد الذي بكى خوفاً على خليله ﷺ في الغار وسيوف المشركين على بعد قدمٍ منهم، خرج من الغار وقد وقر في قلبه زيادة في الإيمان وتفاؤلاً بالله جعله يتصدى لواحدة من أشد المحن على المسلمين بعد ذلك أيام خلافته وهي ردة العرب عن الإسلام بعد موت النبي ﷺ.

خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- طلب زيادة الإيمان من ربه ﷻ:

«وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي»

فاكتسب بعدها تفاؤلاً جعله صابراً ثابتاً وهو مُقيد مُلقى به في النار، وزيادة في الإيمان جعلته يخضع لأمر ربه بذبح ابنه دون سؤال أو جدل، واطمئنان في القلب جعله يترك أهله بوادٍ غير ذي زرع عند البيت المحرم غير خائف أو متردد.

إذن التفاؤل ليس مُسكنًا للآلام
بل دافع للعمل رغم الآلام
التفاؤل ليس كلمات مجردة نخدع بها أنفسنا
بل زيادة إيمان في أوقات اشتد فيها وثاق الشدائد

حتى أعظم آية باعثة للتفاؤل في القرآن الكريم:

«فإنَّ مع العُسرِ يُسرًا . إنَّ مع العُسرِ يُسرًا»

بدأت بـ(ألم) للتذكير والقياس على ما مضى، للتأكيد على أن التفاؤل لا يُقام على الفراغ والأوهام كما يعتقد اليائسون، إنما هو زيادة في الإيمان مُكتسبة من ربٍّ عودنا الجميل، وكأن الله العليم يقول؛ ألم نشرح لك صدرك، ألم نضع عنك وزرك، ألم نرفع لك ذكرك.. كتذكير بالتجارب السابقة الجميلة مع الله ليُكسب حبيبه ﷺ تفاؤلاً في واحدة من أشد الأوقات عليه حين انقطع الوحي فترة من الزمن، لتجعل قلبه مطمئنًّا بـ«إنَّ مع العُسرِ يُسرًا».

وسورة الضحى التي سبقت سورة الشرح في الترتيب وفي النزول وفيها وعد للنبي الكريم ﷺ «ولسَوْفَ يُعطِيكَ رَبُّكَ فَتَرضَى» كباعثٍ للتفاؤل في نفس الحقبة التي انقطع فيها الوحي واشتد إيذاء كفار قريش للنبي ﷺ وصحابته حتى قالوا إن رب محمد ودعه وقلاه، جاءت (ألم) أيضًا للتذكير والقياس على ما مضى، للتأكيد أن تفاؤل المؤمنين هو تفاؤل مُكتسب..

«ألم يجدك يتيمًا فآوى. ووجدك ضالًّا فهدى. ووجدك عائلًا فأغنى»

موسى التفاؤل

ذُكر الخوف في قصة موسى -عليه السلام- أكثر مما ذكر في غيرها، ولم يستحي كليم الله أن يبوح بخوفه لله، يكلمه الله ﷻ تكليماً ويأمره دون واسطة الملاك أن يذهب لفرعون، فيقول عليه السلام إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى!

فيُكسبه الله الرحيم زيادة الإيمان، فيريه من الآيات والمعجزات ما يُثبته عند ملاقاة فرعون وسحرته، ثم يخبره الله العليم بقصة ولادته ومعيته له وهو طفل رضيع لا حول له ولا قوة، وأنه ﷻ نجاه من الغم حين قتل نفساً بغير عمد.

«ولقد مننا عليك مرة أخرى. إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى.
أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فَلْيُلْقِهِ اليمُّ بالساحل
يأخذه عدوٌّ لي وعدوٌّ له وألقيتُ عليك محبة مني ولتصنع على عيني.
إذ تمشي أختُك فتقول هل أدلكم على من يكفله
فرجعناك إلى أمك كي تَقَرَّ عينُها ولا تحزنَ
وقتلت نفسًا فنجيناك من الغم وفتنَّاك فتونًا»

كل هذه المِنن كانت تذكرة هدفها تحطيم خوف موسى -عليه السلام-، فوصلت به إلى مقام إيمان فريد جعله متفائلاً بالله حين تعطلت الأسباب وأصبح البحر أمامهم وفرعون وجنوده خلفهم، حينها قال أصحابه يائسين إنا لمُدركون، بينما قال هو عليه السلام:« **كلا إن معي ربي سيهدين**».

في الوسط اليائس المُتشائم الذي كان يُحيط بموسى -عليه السلام- تبدو كلمات البُشرى والتفاؤل كلمات واهية، لا تُسمن ولا تُغني، هكذا يظن اليائسون دائماً، فلا تجد متفائلاً إلا واتُّهم أنه يعيش في عالم موازٍ جاهلاً بالواقع بعيدًا عن المنطق، لكن تفاؤل موسى كان مُكتسباً، فتلك لم تكن أول محنة يمر بها تتعطل فيها الأسباب، لذلك كان على يقين تام بأن الله الذي كفاه بالأمس سيكفيه ما هو كائن.. وقد كان.

وعلى الجانب الآخر وصل التشاؤم بأصحابه إلى الكُفر! ظهر تشاؤم بني إسرائيل حين نصر الله نبيه موسى على سحرة فرعون، فبدلاً من أن يتفاءلوا بذلك النصر قالوا لموسى «أُوذِينا من قبل أن تأتِيَنا ومن بعد ما جئتنا»، فهكذا نفس اليائس لا ترى خيراً ولا تُلاحظ فضلًا، دائمة التشكي.

لم يتأثر مُتشائمو بني إسرائيل بآيات موسى، بينما تأثر بها سحرة فرعون فأعلنوا إيمانهم على الملأ غير آبهين لتهديد فرعون لهم، تأثر السحرة الذين هم أشد الناس كُفراً ولم يتأثر اليائس المُتشائم..

تبدل حال سحرة فرعون من «بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون» إلى زيادة في الإيمان فقالوا لفرعون الذي أقسموا بعزته:

«فاقض ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى»

تبدلت قلوبهم وغمرهم اطمئنان عجيب بالله ومازالت قلوب بني إسرائيل اليائسة باردة جامدة لم تتأثر، متربصة أي فرصة لتنتصر لتشاؤمها، ثم تأتي حادثة البحر فيقولون «إِنَّا لَمُدرَكُونَ» وكأن سوء الظن بالله عقيدتهم، فينجيهم الله بآية عظيمة ويُغرق فرعون وجنوده أمامهم..

فبدلاً من أن يزدادوا إيماناً بعد تلك المعجزة العظيمة حجبتهم عقليتهم اليائسة فتناقص إيمانهم؛ فما إن جاوزوا البحر مع موسى حتى وجدوا قوماً يعكفون على أصنام لهم فقالوا «يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة»!! قادتهم النفس اليائسة المتشائمة إلى الكُفر. فاحذر التشاؤم وأهله فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

رأيت الله

هو عنوان لمدونات أحتفظ بها وأحب النظر إليها
تلك المدونات ليست خواطر شخصية بل تجارب واقعية حدثت
شدائد ومحن.. فتوحات وعطايا.. منع لحكمة
أعلم أن عنوانها ربما يثير الانتقاد
لكني أحب تلك اللفظة
فلا معنى يصف شعوري غيرها

رأيت الله!!
كلمات أرددها عقب كل معركة مع هذه الدُّنيا
رأيت الله في فعله.. في قدرته.. في إرادته وتدبيره
رأيت الله حين أوشكت على السقوط.. فأقامني هو
رأيت الله حين سُدت الأبواب.. فاستقبلني هو
رأيت الله حين قالوا مُستحيل.. فمكنني هو

تفاءلت به..
فأعلنت أنا الحرب على الدُّنيا وقلت هاتي ما شئتِ
فمن معه رب أنتِ قبضته.. لا يعود مُنهزمًا

لذلك آمل أن يكون لك مدونة مثلها، سمِّها كما شئت، المهم ألا تجعل العطايا تُنسى والشدائد تمضي دون ملاحظة فضل الله وهيمنته ولطفه، دوّن تلك التجارب واجعلها مرجعًا نتفاءل به، عاود قراءتها كلما أقبلت عليك الدُنيا بتحدٍّ جديد، تلك المدونات هي حصنك ضد الكَنَد حتى لا تنسى العطايا ولا تتخذ الشدائد منبعًا للشكوى.

أحيانًا يُرسل الله لك تحديًا ليس له حل، وعقبة لا كاشف لها إلا هو، لأنه -سبحانه- يريدك أن تراه في صفاته، يريد أن يسمع صوتك، ذلك الصوت الذي اعتاد أن يبث شكواه للجميع إلا خالقه، حينها يُقر كل نفس من أنفاس ذلك الصوت أنك مؤمن بإله قادر على كل شيء، وما إن يسمع الله صوت استغاثتك حتى يعطيك مسألتك ويفك كربك، فتصل لمقام زيادة الإيمان وتكتسب تفاؤلاً تتحدى أنت به الدُّنيا.

من أولئك الذين رأوا الله القدير في فِعله، الطبيب الأمريكي دكتور لورانس براون **Laurence Brown** الذي ترك الإلحاد واعتنق الإسلام دون مناظرات علمية أو جدل فلسفي وقد روى تجربته يقول: حين وُلدت ابنتي الثانية، تم أخذها مباشرة من غرفة الولادة في المستشفى إلى غرفة العناية المُركزة، لم أكن أعرف السبب، لم يخبروني بشيء، كنت طبيباً أعمل بنفس المصحة (مستشفى جامعة جورج واشنطن).

وهو أحد أشهر المستشفيات في الولايات المُتحدة وكانت الرعاية الطبية به على أعلى مستوى، لذلك لم يكن هناك أي خطأ طبي أثناء الولادة، ولكنني اكتشفت أن لون ابنتي كان أزرق غامقًا من مستوى صدرها إلى أصابع أقدامها، ولأنني طبيب فهمت أن جسد ابنتي لا يصله الأكسجين؛ لذلك كان لونه أزرق، وقد أظهرت الموجات الصوتية للقلب ضيقًا شديدًا في أوعية الدم الرئيسية، أدركت أن جسد ابنتي يختنق وأنها تحتضر!

عندما رأيت حالة ابنتي شعرت أنني وللمرة الأولى في حياتي عاجز عن فعل أي شيء، شعرت أنني بحاجة إلى قوة عظمى! كنتُ ملحدًا قبل ذلك أؤمن بالنظريات الفلسفية للإلحاد، أنكر وجود الله وكنت أجادل الناس ليبتعدوا عن الإيمان به، غادرت غرفة العناية المركزة لعدم تحملي رؤية ابنتي ذات اليوم الواحد تحتضر، وتركتها مع فريق الأطباء المتخصصين..

طيلة حياتي كنت إذا أردت شيئاً ما، أعرف كيف أنطلق إليه وأحققه، كان هذا هو مفهوم النجاح بالنسبة لي، لكن هذه المرة شعرت بالعجز التام، ليس هناك شيء في عالمي القوي يمكن أن يساعد هذه الطفلة، حتى أنا الطبيب المُتخصص حامل الشهادات والأوسمة الرفيعة عاجز عن إنقاذ ابنتي!

توجهتُ لا إراديًّا لغرفة الصلاة (الدعاء) المجاورة للعناية المركزة، وقلت بفطرتي وكنت صادقًا: يا إلهي إذا كنت موجودًا فأنا أطلب العون منك أن تُنقذ ابنتي، وإن أرشدتني إلى الدين الذي ترتضيه فسأتبعه. مكثت تقريبًا خمس عشرة دقيقة في غرفة الصلاة ثم عدت للعناية المركزة.

عندما دخلت غرفة العناية كان الأطباء يجتمعون حول ابنتي مثل فريق كرة قدم محتشد، كانت نظرتهم إليّ توحي بأن شيئاً ما قد تغير، أظهرت الموجات الصوتية للقلب أن حالة الشرايين طبيعية تماماً، قال لي الجراح إن ابنتي ستكون بخير، وأخذ يشرح لي أنظمة الشرايين محاولاً إقناعي علميًّا وطبيًّا عن سبب تحوّل حالة ابنتي فجأة، لم أقتنع بتفسيره وكذلك بدا الأطباء حولي غير مقتنعين أيضاً، لم تتلقَّ ابنتي أي دواء ولم تخضع لأي جراحة وأصبحت حالتها طبيعية تماماً، هناك معجزة حدثت، آمنت في قرارة نفسي أن هذا من صنع الإله الذي صليت له منذ قليل!

أردت أن أفي بالعهد الذي قطعته، بحثت في الكتب المُقدسة لمختلف الأديان، قرأت في البوذية والتاوية ثم الهندوسية واليهودية فالنصرانية، ومع كل ديانة واجهتها وصلت إلى النهاية التي تقول ليست هذه، لم أحصل على أي إجابات، كأمريكي كان آخر دين أفكر فيه هو الإسلام، لكن عندما درسته وجدت كل الإجابات، فأصبحت مُسلمًا**

تغيرت نظرة الرجل للإله بعد تلك التجربة، قبلها كان يُنكر وجوده ويرى أن كوناً به كل هذه الصنوف من الشر والمتاعب والكَنَد لا يحكمه رب، فكان يدعو الناس للكفر به..

بعدها.. وقر في قلبه يقين تام بالله، تسليم، إيمان تعجز المناظرات العلمية والنظريات الفلسفية عن تفسيره، شيء وقر في القلب غيَّر بصيرته، ليرى في الشر حكمة وفي المنع عطاء..

وكل منا له عدد لا يُحصى من الأحداث التي تهتز أعماق النفس لها قائلة (رأيت الله!)، فألطاف الله تغمرنا كل يوم، والسعيد هو من يلاحظها، تدوين تلك الأحداث والنظر فيها يرتفع بالنفس فتطمئن، يزداد إيمانها فتصبر على مكروه لم تفهم حكمته وابتلاء لم يُكشف سره!

تأمل في الحياة ترَ أمورًا .. ستعجب إن بدا لك كيف كانت
فكم من كربة أبكت عيونًا .. فهونها الكريم لنا فهانتْ
وكم من حاجة كانت سرابًا .. أراد الله لقياها فحانتْ
وكم ذقنا المرارة من ظروف .. برغم قساوة الأيام لانتْ
هي الدنيا لنا فيها شئون .. فإن زيّنتها بالصبر زانتْ

منع العطاء

كان الرجل يعمل في البحر
قاربه هو كل ما يملك
قوته وقوت عياله منه
ينقل الناس ومتاعهم
استقبل يومه بصلاة الفجر
قال أذكاره.. سأل ربه التوفيق
أخذ بأسباب البركة .. فالبركة في البكور
ثم توكل على الله ساعياً لرزقه دافعًا قاربه

ضرب البحر مُستبشراً بقاربه المشحون
وما إن تراءت وجهته التي قصدها
إذا بالقارب يميل قليلاً!
أرسل صبيه يستكشف الأمر
فإذا هو ثقب في القارب يمنعه العودة مشحوناً
ضاعت رحلته هباءً
فما كسبه ذاهباً سيُصلح به ثقباً منعه العودة محملاً

وفي زمن آخر
تدخل امرأة على سيدنا داود -عليه السلام- تسأله
يا نبي الله، أربُّك ظالم أم عادل؟
فيقول عليه السلام: ويحك يا امرأة هو العدل الذي لا يجور، ما قصتك؟
فتقول: أنا أرملة عندي ثلاث بنات أقوم عليهن من غزل يدي
فلما كان أمس شددت غزلي في خرقة حمراء
وأردت أن أذهب إلى السوق لأبيعه وأبلّغ به أطفالي
فإذا أنا بطائر قد انقض عليّ وأخذ الخرقة والغزل وذهب
وبقيت حزينة لا أملك شيئًا أبلّغ به أطفالي!!

قصص حياتنا غالبًا ما تنتهي عند الحد الذي انتهت عنده قصة الرجل ذي القارب المخروق، وحدود معرفتنا لا تتعدى معرفة المرأة التي ضاع غزلها، الرجل استقبل يومه بصلاة الفجر وأخذ بأسباب البركة ساعياً ليُحصل قوت عياله ولكن ضاعت رحلته!! والمرأة مات زوجها فعملت بيديها حتى لا تسأل الناس فضاعت خرقتها وجاع أطفالها!

ومن هنا تبدأ رحلة الكَنَد..
فنتبع الشكوى بشكوى ونضع فوق اليأس يأساً
لكن ماذا لو فُتح لنا من الغيب بصيص نرى منه ما حدث!

أما الرجل الذي ظن أن رحلته ضاعت هباءً
وربما مد عينيه إلى أقرانه حسدًا ظنًّا منه أنهم غنموا وهو لم يغنم
ففي وجهته التي قصدها
كان هناك ملِك يأخذ كل سفينة غصبًا
ولما رأى قاربه مخروقًا.. تركه
فكان الخرق عين الكمال
وكان المنع عين العطاء

أما المرأة.. فبينما هي تشتكي خالقها لخلقه
إذا بالباب يطرق ويدخل عشرة من التجار معهم ألف دينار
فقالوا يا نبي الله هذه صدقة نذر أعطها لمستحقها
فقال لهم داود عليه السلام: ما حملكم عليها؟
قالوا يا نبي الله كنا في مركب للتجارة
فهاجت علينا الريح وخُرق المركب وأشرفنا نحن وبضاعتنا على الغرق
فإذا بطائر قد ألقى علينا خرقة حمراء وفيها غزل فسدّدنا به عيب المركب
حتى هدأت الريح وسلمنا فنذرنا لله أن يتصدّق كل واحد منا بمائة دينار
فالتفت داود -عليه السلام- إلى المرأة وقال لها:
ربٌّ يتَّجِر لكِ في البر والبحر وتشتكينه؟
خذي المال فبلّغِي به أطفالك

تأدب مع الله إن لم تكتمل قصتك
عبوديتك له تقضي بتسليمك لاسمه الحكيم
لا تفتح استجوابًا طالبًا ما وراء الأحداث
ما عرّفك حكمته .. خذه واكتبه وانظر فيه
اجعله عوناً وصبراً لما حُجب عنك

علمتنا الكهف أن خرق السفينة هو قمة المعروف
وأن قتل الغلام هو قمة الرحمة
وأن حبس كنز اليتيمين هو قمة الوفاء

لأجل هذا..
كن مؤدبًا في حزنك
أنيقًا في ألمك
حامدًا في دمعتك
فأنت في معية رب حكيم
والحزن كما الفرح
هدية من رب رحيم
سيمكث قليلاً ثم يعود
حاملاً معه تفاصيل زيارته.

(١٦)

أخبار القرآن

لا تقرأ أخبار الدنيا
لا تتابعها ولا تنظر إليها
لا تسأل عما حدث أمس
فأمسهم لم يكن أمسك
وحسابهم ليس عملك

أخبار الدنيا
كن جاهلاً عنها زاهدًا فيها
فالجهل عن الجهل حكمة
والزهد في الفقر امتلاك

كن مع القرآن
استقبل به يومك .. اقرأ أخباره .. انظر في معانيه
ولا تقرأه كما تقرأ سواه .. تدبره .. تفكر آياته
تجد ما يثلج صدرك .. ويبعث الأمل في نفسك

ألم تسمع قصة الفتى
ذاك الذي غلبه النوم في درسه
فكتب معلمه مسألة
ثم قال -والفتى لم يسمع-
إنها مسألة مستحيلة
لم يحلها طالب قط!
صدَّق الفتية الخبر
فلم يحاولوا نقلها
ولم يحاولوا حلها!!

ثم استيقظ الفتى
فوجد مسألة قد كُتبت
لم يعلم خبرها
نقلها وحاول حلها
فحلها!!!

في اليوم التالي أهداها معلمه
استعجب الفتية والمعلم مستعجب
أيقن الفتى أنه الوحيد بينهم
قد حل المسألة وتفوق عليهم
أعجبهم ذكاؤه وفطنته
وسألوه عن سر فراسته
فضحك الفتى وأفصح لهم
إنه فقط لم يسمع خبرها
ولو سمعه ما حلها!!

هكذا تفعل بك أخبار الدنيا
تُملي عليك ما ليس فيك. تحمل عليك ما ليس حملك
تارة أنك لا تستطيع. وتارة أنك ستضيع

أما القرآن .. فهو حياة
جعل الله "الروح" اسمًا له
القرآن كان وحيًا ومازال وحيًا
صلة القرآن بالسماء هي صلة أبدية
تلك الصلة جعلته يحتفظ بأسرار العالم الذي جاء منه
لذلك سيخبرك القرآن بكل ما تريد معرفته دون الحاجة لأخبار الدنيا

ذلك الكتاب الذي أُنزل منذ أربعة عشر قرنًا سيخبرك بالواقع الذي تعيشه الآن ويُملي عليك تفاصيله، سينقل لك أخباره بكل دقة، لن يخدعك كما تخدعك أخبار الدُنيا، لن يعطيك وعوداً كاذبة ولن يُضخم لك مشكلة لا أساس لها، سيُقدم لك الواقع بكل صدق، خيره وشره، لكن الأجمل أنه سيُخبرك كيف نتعامل معه.

للقرآن هيبة، تجعل كل الموجودات تخضع له، إذا حضر القرآن فإن كل خبيث يرحل، يتعكر صفو الشياطين فتفر، سكينة تسري في كل شيء لامسته كلمات القرآن العظيم، وهذا سيكون أول حصادك منه، حتى قبل أن تفهمه أو تتدبره سيسيطر عليك بهيبته، ويفرض عليك سكينته، فيلين قلبك وتهدأ نفسك، سر عجيب، حتى مشركو قريش خضعوا لهيبة القرآن رغمًا عنهم!

فهذا الوليد بن المغيرة أحد قادة قريش وسادتها، كان من أغنى أغنياء عصره، لقبته قريش بالوحيد؛ لأن قبائل قريش كانت تكسو الكعبة عامًا ويكسوها هو وحده عامًا، وكان من أفصح العرب وأشعَرِهم، وقد مَرَّ على النبي ﷺ في المسجد الحرام وهو يقرأ من سورة غافر:

«حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم. غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطَّوْلِ لا إله إلا هو إليه المصير»

فأخذته هيبة القرآن، وسارت فيه سكينته، فوقف يسمع قراءة النبي ﷺ فَفَطِن له رسول الله فأعاد الآيات التي قرأها، فخضع الوليد ورق، فبلغ ذلك أبا جهل وخشي أن يبلغ أمر الوليد سائر قريش، فأراد أن يستنفره حتى يقول شيئاً في القرآن يعيبه به، فقال الوليد بن المغيره: إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لَمُثمِر، وإن أسفَله لَمُغدِق، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه!

حتى أبو جهل كان يتسلل ليلاً إلى مكان قريب من بيت النبي ﷺ ليسمع القرآن حتى طلوع الفجر، وبينما هو عائد إذ يجد بالطريق أبا سفيان والأخنس (من قادة قريش) ليعلم أنهم هم أيضاً كانوا حول بيت النبي ﷺ يستمعون القرآن سرًّا.. لسماعه سعادة أسرت قلوب المشركين!

حتى الجِن، تلك المخلوقات التي اتصفت دوماً بفعل الخوارق والعجائب، حين تعرضوا للقرآن قالوا «إنا سمعنا قرآنًا عَجَبًا»، خضع أهل العجائب لهيبة القرآن فوصفوه بالعَجب، وأول ماأعجبهم في القرآن أنه «يَهدي إلى الرُّشْدِ» والرُشد بضم الراء تَعني صلاح أمور الدُّنيا والدين، ألم أخبرك بأن ذلك الكتاب قادر على أن يُصلح لك واقعك!

والملائكة دنت لصوت الصحابي أسيد بن حُضير وهو يقرأ القرآن، فبينما كان يقرأ في الليل من سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس (تحركت)، فسكت عن القراءة فسكنت الفرس، فعاود القراءة فجالت الفرس، فسكت فسكنت الفرس، وكان ابنه يحيى قريبًا من موضع الفرس فخشي أن تصيبه فقام من مقامه واجتر ابنه (جذبه إليه)، ثم رفع رأسه إلى السماء فرأى ظُلّة (سحابة) مضيئة فيها أمثال المصابيح، ارتفعت تلك الظُلّة إلى السماء حتى اختفت..

فلما أصبح حدث النبي ﷺ بما رأى، فقال له ﷺ «اقرأ يا ابن حُضير. اقرأ يا ابن حُضير» أي ليتك أكملت قراءتك حينها، فقال ابن حُضير خشيت أن تطأ الفرس ابني يا رسول الله، فقال ﷺ «وتدري ما ذاك؟ تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبَحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم».

كتّاب مثل هذا لا تتركه
صاحبه.. رافقه.. تشبث به
فإن فيه ومعه السعادة والرضا
تزاحم عليه الكافرون به مدحًا
وسمعه الجِن فقالوا عجبًا
ودنت لتلاوته الملائكة قُربًا

أما الله
مالك كل شيء
الذي هو بكل شيء عليم
فقال عن القرآن.. أولم يكفهم!
«أولم يكفِهِم أنّا أنزَلنَا عليكَ الكتّابَ يُتلَى عليهِم»
وهي رسالة من الله رب النِعم أن القرآن هو أعظم النِعم!

إن أذِن الله لنا
كان لنا من بحر القرآن قطرة
فقطراته أغاثت ظمآن فارتوى

(١٧)

حمدلة عاشق

ربي
لك الحمد حتى ترضى
ولك الحمد إذا رضيت
ولك الحمد بعد الرضا

الحمد لله الأول قبل كل موجود
الحمد لله الآخر بعد كل مفقود

الحمد لله الحي قبل كل حي
الحمد لله الحي حيث كل حي
الحمد لله الحي بعد كل حي

الحمد لله الذي كان ولم يكن في السماء قطرة
ولا في الأرض شجرة
ولا للريح هبوب

الحمد لله الذي رفع السماء على عمد القوة
ودحا الأرض على مهاد القدرة
وأجرى البحار في أخاديد العظمة

الحمد لله الذي يعلم ما كان.. وما يكون.. وما سيكون
وما لم يكن لو كان كيف كان يكون!

الحمد لله حبيب كل غريب
الحمد لله أنيس كل كئيب

الحمد لله خير السامعين
سامع أصوات المستغيثين
عالم خفيّ إضمار الصامتين

الحمد لله الذي لايشغله شأن عن شأن
ولا سمع عن سمع
ولا تشتبه عليه الأصوات
ولا تختلف عليه اللغات

الحمد لله الذي لا تغالطه كثرة المسائل
ولا يبرمه إلحاح الملحين
ولا تضجره مسألة المساكين

الحمد لله الواحد الذي ليس معه ربٌّ يُدعى
الحمد لله العليّ الذي ليس فوقه أحد يُخشى
الحمد لله المهيمن الذي ليس له وزير يُؤتى

الحمد لله الذي لا يظله فوق ولايقله تحت
الحمد لله الذي لايقابله حد ولايزاحمه عند

الحمد لله الذي لايأخذه خلْف ولايحده أمام
الحمد لله الذي لم يظهره قبل ولم يفنه بعد

الحمد لله الذي لم يجمعه كلٌّ ولم يوجده كان
الحمد لله الذي لم يفقده ليس

الحمد لله الحليم الذي لا يعجل
الحمد لله الكريم الذي لا يبخل

الحمد لله المنيع الذي لا يُرام
الحمد لله المجير الذي لا يُضام

الحمد لله حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده

إلهي
إليك وإلا لا تُشَدُّ الركائبُ
ومنك وإلا فالمؤمِّل خائبُ

وفيك وإلا فالغرام مضيَّعٌ
وعنك وإلا فالمحدِّثُ كاذبُ

إلهي
بنور وجهك إني عائذ وجل
ومن يَعُذْ بك لن يشقى إلى الأبدِ

أنا لا أُضام وفي رحابك عزتي
أنا لا أخاف وفي حماك أماني

مهما لقيت من الدنيا وعارضها
فأنت لي شغل عما يرى خَلَدي

تحلو مرارة عيش في رضاك
وما أطيق سخطًا على عيش من الرغدِ

فافعل ما تشاء خالقي
فأنا عاشق في هوى الواحد الأحدِ

إذا كان لديك بيت يؤويك، ومكان تنام فيه، وطعام في بيتك، فأنت أغنى من ٧٥% من سكان العالم. فقل الحمد لله.

إذا كنت قد أصبحت في عافية اليوم، فاعلم أن هناك تقريباً ٤٠ مليون إنسان على الكوكب الآن يعانون آلام السرطان كل صباح .فقل الحمدلله.

إذا لم تتجرع خطر الحروب، ولم تذق طعم وحدة السجن أو التعذيب فأنت أفضل من ٥٠٠ مليون إنسان على سطح الأرض. فقل الحمد لله.

إذا كنت تصلي في المسجد وتمارس شعائر دينك دون خوف من التنكيل أو التعذيب أو الاعتقال أو الموت، فأنت في نعمة لم يعرفها ثلاثة مليارات من البشر. فقل الحمد لله .

إذا كان أبواك على قيد الحياة ويعيشان معاً غير مطلقين فأنت نادر في هذا الوجود. فقل الحمد لله.

إذا قرأت هذا الكتاب فاعلم أن هناك مليارين من البشر فاتهم التعليم لأسباب قهرية. فقل الحمد لله.